أحمد الصاوي محمد



الرقص على البارود

ملتزم النشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

للمؤلف

حيـــاة قلب	شركة فن الطباعة
مأساة فرنسا	شركة فن الطباعة
المرأة لعبتها الرجل	شركة فن الطباعة
أسرار انهيار أوربا	شركة فن الطباعة
الموجة العذراء	شركة فن الطباعة
الرقص على البارود	شركة فن الطباعة
باريس	مطبعة دار الكتب المصرية
ماقل ودل (فى جزئين)	مطبعة دار الكتب المصرية
تاييس	المطبعة العصـرية
الزنبقة الحمراء	المطبعة العصـرية
افروديت	المطبعة العصـرية
فى الحياة والحب	مطبعة مصر ـ سكر
طرطـــــوف	بتكليف من وزارة المعـارف العموميـة
عـــدو المجتمع	بتكليف من وزارة المعـارف العموميـة

عيـــد الذهب ، بتكليف من الفـــرقة القوميـة

رجال ونساء (فى أربعة أجزاء)	م . دار النشر الحديث
مجلتى	فى اثنى عشر مجـلداً
كليـوباتره	« مجلد واحـد

بالفـــرنسية

الصحافة المصرية منذ نشأتها إلى اليوم	(باريس ١٩٢٨)
الإصلاح فى مصر منذ ثورة ١٩١٩	(« ١٩٢٩)

الإهداء

الى عزيزى

جبرائيل تقلا باشا

صاحب « الاهرام »

وصاحب الفضل الأول

فى

ترقيــة الصحافة المصرية

وتـكريم الصحفى المصرى

ص .

راقصة الغلاف عن تمثال برنزى ،
كان قد اشتراه المؤلف من المثّال
النمسوى المشهور « ڤايس » بمدينة ڤينا

١

الصحافة هى التعب والجرى وراء التعب .. ماذا حدث ذات عيد ميلاد فى ألمانيا ؟ .. عندما يخطب الفوهرر .. والدنيا صامتة صاغرة ...

● بعض الناس يبحث فى الأرض عن الذهب ، والبعض عن التعب . نحن ، الذين نعيش من شق القلم ، نبحث عن الهموم ، ولايهمنا ذهب الأرض ، فالذهب دائماً عند أقدامنا ، لايرتفع إلى رأسنا . نحن أسياده ، ولن نكون ، يوماً ما ، عبيد الذهب !

وهذا كتاب ضخم ، بقلم الصحفية الامريكية المشهورة ، الآنسة «ڤرجينيا كاولز» ، تعيش فى كل صفحة منه أكثر من حياة . كل دقيقة من حياتها تلتمس الخطر وتنشده ، لأن الخطر هو روح رسالة الصحفى ، إنه يوجد حيث يوجد الخطر . فالمفاوضات السياسية ، والحركات الدبلوماسية ، والتجهيزات العسكرية ، تجتذب الصحفى إليها لأنه يستشف وراءها المهالك ، ووظيفته أن يرسم هذه الأخطار بعد وقوعها ، وينبىء

بها قبل حدوثها . . ولم يكن « ونستون تشرشل » في كل تنبؤاته عن الحرب الحاضرة إلا صحفياً . ولم يتسع لآرائه وأحكامه وحملاته صدر ، إلا صدر الصحافة .

● عاشت مؤلفة كتاب « البحث عن الهموم » فى « مدريد » ، خلال الحصار ، واعتبروها جاسوسة ، وسمعت الهر هتلر يتكلم فى جموع النازى والجماهير الحاشدة الخاشعة بنورمبرج ، وكشفت عن الاستعدادات للحرب من براغ ، وبلاد السويد ، وبرلين ، وموسكو ، وروما . . . وكانت فى برلين يوم اجتاح الألمان بولونيا . . ثم عادت إلى فرنسا لتشهد انهيارها تحت دبابات الألمان . . ثم هربت بمعجزة إلى لندن عندما كانت طائرات هتلر تمطرها وابلًا من النار والحديد .

ولقد تحدثت مع « تشمبرلن » و « تشرشل » و « البرنس فيليب هس » البروسى ، وعملت مع اللورد « بيفربروك » فى جريدته « ايفننج ستاندرد » .

ولقد اشتهرت « فرجينيا كاولز » بمقالاتها وأحاديثها ، وذاع فى العالم صيتها ، لما طبعت عليه من الجرأة ، واللباقة ، والفطنة . وهى كريمة الدكتور

« ادوارد سبنسر كاولز » ، الطبيب النفسانى الشهير ، الذى هو أيضاً مؤلف كتاب « لاتخف ! . . » فلا عجب إذا ورّث ابنته الشجاعة ! .

* * *

● فى يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٧ ، كانت سيارة الأجرة تحبو بى كالطفل إلى « بيكادللى » فى ضباب من الكثافة بحيث شد السائق على تروس عربته ، وأمسك بفراملها ، فكان لايكاد يخطو شبراً إلا بحذر . . ولقد رأيت لندن مرات عديدة فى الضباب ، ولكنى لم أشهدها قط أشد ظلمة منها فى هذه المرة . فلقد كان ضبابها أشبه بسحابة قاتمة خانقة من الدخان . فأخمد مصابيح الشوارع ، ودلف إلى داخل البيوت ، وألقى ظلاله الكئيبة على أشجار عيد الميلاد . . وانتشر الضباب فوق العاصمة الإنجليزية كلها كملاك حزين ، نشر جناحيه بنبوءة مروعة عن المستقبل . وكان ذلك ، عيد الميلاد السابق ، لاحتلال الألمان بلاد النمسا وضمها إلى الرايخ . . وكان آخر عيد ميلاد لاتزال محترمة فيه حقوق الدول العظمى فى القارة الأوربية . وكان ضجيج الخطر عبر المانش يصم الآذان . . .

فعندما وصلت إلى انجلترا أول مرة عملت فى جريدة اللورد بيفربروك : « ذى ايفننج ستاندرد » بضعة أسابيع ، وكثيراً ما كان التليفون يدق بعد الظهر وصوت بيفربروك يدعونى إلى دار الجريدة لتناول الشاى . وكنت أجده دائماً محوطاً بالصحف والإشارات التليفونية والسكرتيرين . وكان الشاى يقطع ست مرات بدق التليفون ، وإن كانت لا تبدو أمارات ابتهاجه إلا فى وسط هذه الضجة التى يوجه إلىّ خلالها أسئلة كالآتى : « أى الناس لاتحبين فى انجلترا ؟ . . ولماذا جئت هنا ؟ . . ومع من أنت فى غرام » ؟ ؟ !

وكان من زملائى فى جريدة « الايفننج ستاندرد » « رندولف تشرشل » نجل « ونستون » ، وقد عرفت رندولف فى نيويورك . وكان شاباً نارياً فى السابعة والعشرين ، يريد أن يحارب الألمان حتى منذ احتلالهم « الراينلاند » فى سنة ١٩٣٦ ، وكان يهاجم سياسة التهدئة بقسوة فى كل مناسبة . وقد أعجبت بالشجاعة التى يبدى بها آراءه ، وإن كان الخروج معه بمثابة الخروج مع قنبلة تنفجر فى موعد معين ! . .

● وقد عكف رندولف على جمع خطب والده التى ألقاها فى مجلس العموم ، وهى التى نشرت أخيراً تحت عنوان « بينا انجلترا نائمة » ، وكان يشتغل بهمة ويقدّر ويعلّق . . ولا حاجة إلى القول بأن إعجابه بوالده لاحدَّ له ، وقد أخذنى يوم أحد إلى بيت تشرشل الريفى فى « شارتويل » ، حيث لقيت أسرته لأول مرة .

فوجدنا « مارى تشرشل » ، أخته التى فى الرابعة عشرة ، فى « الزريبة » لتتفقد حال « أوزى » صغير ولد منذ يومين . . وكانت مسز تشرشل فى الحديقة تتحدث إلى جارتها مس « هنرييتا سيمور » . وكان المستر تشرشل عند البركة فى معطف ممزق وقبعة رخوة مطبقة ، يدور فى الماء بعصا سنارته ، باحثاً عن سمكته المرجانية الصغيرة التى ألقاها فى الماء ليصطادها ، فاختفت !

● ويروعك ، فى أسرة تشرشل ، ذلك التعلق العميق بعميدها ونستون . وهذا مفهوم . لأن كل مافيه ، عليه طابع إنسانى يجذب المرء إليه من فوره . وعندما سرنا فى عودتنا إلى البيت قال مخاطبا رندولف : « آه . . . ! لقد نسيت خُفى « شبشبى » ! . . فلا تذكر ذلك

لـ « كليمى » وإلَّا عنفّتنى ! » . . . و « كليمى » هى مسز تشرشل وهى سيدة طويلة القامة ، جميلة المحيا ، عبدها زوجها بداهة . فأنت تلحظه ناظراً إليها ليرى أثر نكاته و « قفشاته » . وجرى الحديث على الغداء حول حوادث اليوم . فانتقد المستر تشرشل بحزن ، عجز الحكومة عن رؤية هبوب العاصفة على القارة . وقال : « الظاهر أنهم لايدركون أننا نعيش فى عالم شر وخبث . والشعب الإنجليزى يريد أن يُترك وحده هو وشأنه . . وكذلك ما أكثر الناس الذين يريدون أن يتركوا وحدهم هم وشأنهم ! . . غير أن العالم كحصان عجوز متعب يكد فى السير فى طريق طويل ، كلما شرد وحاول أن يرعى فى كلأ أخضر جميل ، خرج عليه سيد جديد ليضربه بالسوط لينزل إلى الطريق . فلامعنى لوفرة الناس الذين يريدون العيش بسلام ، إذ لاسبيل أمامهم إلى النجاة . . »

● ولقد زادنى احتكاكى بالناس والحوادث ، تعلقاً بصناعتى ، بحيث نبذت كل فكرة للعود إلى أمريكا ، وأصبحت فى عداد المحررين الدائمين بجريدة « سنداى تيمس » كمراسلة « متجولة » . . وفى خلال العام التالى بعثت بى

وظيفتى إلى بلاد عديدة وعواصم كثيرة ، وقد راقبت الأنوار فى غرفة الموت تنطفىء واحداً بعد واحد ، حتى جرّ الغطاء فوق رأس الجثة ، ولم تعد القارة الأوربية تضىء إلا على انعكاس انفجار القنابل .

● رأيت روح ألمانيا النازية مرفرفاً على الشوارع القديمة فى مدينة نورمبرج ، كما لو كان نهراً قد انفجرت خزاناته . إن مليون راية حمراء ، بيضاء ، سوداء ، من ذوات الصليب المعقوف كانت تخفق على حافات النوافذ . . والمدينة ، قد انتفخت إلى ثلاثة أمثال حجمها العادى ، إذ تدفقت عليها أمواج لانهاية لها من الستر العسكرية ، من جميع الرتب ، ورنت فى شوارعها ضربات الأحذية الطويلة الثقيلة . وعلى الرغم من أن تنظيم ألمانيا الحربية الحديثة يعد أعجوبة لايمكن لغير عصرنا الآلى أن يحدثها ، فقد كانت نورمبرج ، إذا ماأرخى الليل سدوله ، تصبح ، بمنازلها العتيقة ، قطعة من القرون الوسطى . . وتدق ساعتها كما كانت فى الزمن الخالى . وأهداب الرايات الحمراء الطويلة تتدلى من قلعة نورمبرج ، وتتألق فى ضوء القمر ، كأنها أعلام حرب دينية قديمة ، ويسمع وقع

الأقدام السائرة ، وأصداء الأصوات التى تردد ، فى جماعات ، أناشيد النازى الجهادية التى فيها كل حماسة الحروب الصليبية . وإنك لن تعود فى وسط هذا الجو إلى حقيقة الزمن الذى تعيش فيه ، وتعرف أن السنة هى ١٩٣٨ ، إلا إذا سمعت فجأة أزيز الأجنحة الفضية المحلقة فوق رأسك بسرعة ثلاثمائة ميل فى الساعة .

وكان ذلك أسبوع الأزمات الشداد . بل إن الدنيا قد أدركت فيه مصيرها المحتوم . فإن التهجم على تشيكوسلوفاكيا كان شديداً ، والآن والجيش الألمانى معبأ ، فهى تنتظر خطاب هتلر الموعود ، فى آخر أيام المؤتمر ، ليكون القول الفصل فى حياة حضارة أو موتها ، وبقائها أو انهيارها .

وليس فى نورمبرج إلا ثلاثة فنادق كبيرة فقط ، وامتلأت أكثر الغرف بالضباط الألمان ، والمندوبين المميزين ، كالطليان ، والأسبان ، واليابانيين . وأُغلقت الصحافة الأجنبية فى عربات النوم الحديدية خارج المدينة . فكان من حظى أن أقنعت مدير فندق « ورتمبرجرهوف » بإعطائى غرفة ، لكن هذا الحظ لم يدم غير يومين ، فإن

وفداً يابانياً جديداً وصل بغتة ، وطلبوا إلىّ الرحيل . فهب لنجدتى زميلى « جول ساورفاين » من جريدة « پارى سوار » واكترى لى غرفة فى بنسيون صغير حيث كان ينزل ، تديره امرأة نكدة تدعى « فراو فلايشر » مهووسة بالسياسة . وكانت الغرف مظلمة ، لاتكنس ، وكان الفطور لايؤكل : قهوة مائية ، وقطعة من الخبز الأسود . . ومع ذلك كنت سعيدة بوجودى هناك لا لأن الفنادق كانت غاصة فقط ، بحيث لاتتسع لممثلى الصحافة ، بل لأن رجال السلك السياسى الأجانب قد اضطروا إلى الالتجاء لمركبات النوم الحديدية . فكان قطار السفراء على مسافة ثلث ساعة من المدينة . وجعل أسطول من السيارات فى خدمة الدبلوماسيين ، يقودهم شباب النازى . ووفر لهم كل مايمكن من أسباب الراحة ، ولكنك على أى حال كان لايسعك إذا تمشيت على الرصيف ، المعرّض لمهب الريح ، ورأيت سفراء الديمقراطيات الثلاث الكبرى : بريطانيا العظمى ، والولايات المتحدة ، وفرنسا ، مطلين من نوافذ عربة الأكل فى القطار الذى ينزلون فيه ، أقول : لايسعك

إلا أن تشعر بأن الأحداث فى أوربا قد تحولت إلى سوء !...
وأن الدهر قد قلب ظهر المجنّ ! . . .

فصعدت إلى القطار ، ومررت خلاله حتى وصلت أخيراً إلى ديوان عليه اسم « الولايات المتحدة » ، فدققت الباب ، وسمعت صوتاً يأذن بالدخول . . . ووجدت السفير الأمريكى ، مستر « هيوز ويلسون » جالساً بلا عمل ، ينقر بأصابعه على طرف الشباك . . وكان - بداهة - ليس وراءه مايفعله . فلشد ما كان تألمى إذ أرى أن هذا هو الدور الذى تلعبه أقوى ديمقراطية فى العالم ، فى الوقت الذى يهدد فيه العمران بأشد الأخطار .

● والحقيقة أن الدبلوماسيين يعلمون من بواطن الأمور دون مايعلم الصحفيون . وقد رفض هتلر أن يقابل أى أحد منهم ، وكانت اتصالاتهم دون اتصالاتنا نحن بكثير . ومع ذلك فقد حاول زميلى « وارد بريس » أن يستشف من سفير بريطانيا « نفيل هندرسون » معنى المقال الذى ظهر فى اليوم السابق « ٧ سبتمبر » بجريدة « التيمس » وفيه اقتراح على التشيك ، بأن يحلوا مشاكلهم بالتنازل عن « السوديت » لألمانيا . فإن الرجل السياسى

الذى يؤمن بسياسة : أن « الموقف الحازم » يجعل هتلر يتقهقر ، قد عد هذا المقال طعنة خائنة فى الظهر . ولاشك فى تأثير المقال فى الأوساط الألمانية الرسمية ، فقد افترت شفاه زعماء النازى عن ابتسامات ، وراحوا ، فى ارتياح ، يؤكدون للجميع أنه لن تكون هناك حروب ولا كروب .

وقال الدكتور « ديتريتش » ، مدير المطبوعات : إن هتلر لايريد الحرب . . ثم أضاف بابتسامة خبيثة قوله : « إنه يستطيع الحصول على مايريد بلا حرب » ! . . وكان هذا الاعتقاد منتشراً بين الشعب الألمانى . وكانت حدائق « البيرة » تتجاوب بالضحك والموسيق ، والناس جميعاً فى مرح واتفاق على أن هتلر من الفطنة بحيث يفوز ، بالدبلوماسية وحدها ، دون الحاجة إلى رفع السلاح ! . .

● وفى ذات ليلة ذهبت مع زميلى « جول ساورفاين » لسماع خطاب يوجهه هتلر إلى قادة النازى السياسيين المجتمعين من كافة أنحاء ألمانيا . وكان « الاستاديوم » مزدحماً بنحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة ، وكان كلما دنا موعد وصول « الفوهرر » زاد قلق الجماهير . ومرت الدقائق ، وكان الانتظار لاينتهى . . . وإذا بدق طبول يرتفع فجأة ، وجرت

ثلاثة موتوسيكلات بأعلام صفراء إلى البوابات ، وبعد دقائق قليلة ، أقبل رهط من السيارات السوداء يجرى مسرعاً إلى الساحة ، وكان هتلر واقفاً فى المقعد الأمامى لإحدى هذه السيارات ، ويده ممتدة بالتحية النازية .

● وكانت المظاهرة التى تلت ذلك من أدهش ماشهدت فى حياتى . فقد صعد هتلر إلى مقصورته فى « الستاد » الكبير بين هتاف يصم الآذان ، ثم أشار إلى القادة السياسيين بالدخول ، وهم نحو مائة ألف شخص قوى ، خرجوا من فتحة فى آخر الميدان ، فبدوا فى ضياء القمر الفضى ، كما لو كانوا مجرى ماء يتدفق فى طاس هائلة ، وكان كل واحد منهم يحمل علماً نازياً ، فلما تجمعوا وهزوا أيديهم بدت الطاس كما لو كانت بحراً خضماً من الصلبان المعقوفة ! . .

وعندئذ بدأ هتلر يتكلم . . . فظل الحضور كأن على رؤوسهم الطير ، غير أن الطبل ظل يضرب ضرباً منتظماً متواصلا ، وكان صوت هتلر يمزق فى الليل حجب السكون ، يقاطعه ، هنا وهناك ، زئير من الهتافات المدوية .. وطفق بعض الحشد يهتز إلى الأمام ، ثم إلى

الخلف ، وهو يرتل آيات النازية ترتيلا ! . . ثم يمنة ويسرة ، كما لو كان قد أصيب بمس أو انجذاب . . فنظرت إلى الوجوه من حولى ، ورأيت العبرات تجرى على خدود الناس وتتساقط مدراراً . . وازداد دق الطبول ارتفاعاً ثم ارتفاعاً . . فشعرت بالوجَل ، وظللت لحظة تائهة لا أدرى هل أنا فى حلم . . أو لعلنا كنا حقاً فى أعماق أحراش أفريقيا ! . . . فهمست فى أذن زميلى مراسل « پارى سوار » : هل نذهب ؟ . . وكان سؤالا غبياً لأننا محصوران من كل جانب ، ولاشىء فى وسعنا إلا الجلوس حتى النهاية .

وجاء الختام . . فغادر الفوهرر مقصورته ، وصعد إلى السيارة . وكأنما طلاسم السحر قد فكت عن الجماهير بمجرد توقفه عن الخطابة . وما إن غادر هتلر « الستاد » وعاد إلى السيارة حتى تحول وجهه الصغير فجأة فصار أسمر عاديا . وكان لابد لك من التفرّس للتحقق من أن هذا الرجل هو الذى سمّرت عيون الدنيا عليه ، وأن فى يديه وحده البرق الذى يحرق ويصعق . .

٢

من هى الفتاة الانجليزية صديقة الهر هتلر ؟
بينما كان الفوهرر يبتسم لها فى منامه ،
كانت الدنيا ترقص على فوهة بركان ! . .

كان أرقى وسط اجتماعى فى « نورمبرج » بالجراند أوتيل . فهـذا الفندق هو دائماً قبلة السياح الأجانب لفخامته ، يقصدونه من كافة أنحاء العالم ، غير أنه فى تلك السنة كان واضحاً تغيب الفرنسيين ، وقلة الإنجليز ، فلم يكن منهم غير عشرين أوثلاثين شخصاً . وكان أكثرهم من حزب « موسلى » الفاشستى . . . وعلى رأس الفريق الإنجليزى كنت تجد اللورد واللادى « ردسديل » ، وكريمتهما الآنسة « أونيتى » . . وهى فتاة طويلة القامة ، ذات عينين زرقاوين نجلاوين ، وغدائر شعرها الشقراء تتدلى على الكتفين . . وهى تعبد هتلر باندفاع بنت المدارس ، وقد أقنعت أمها وأباها بالحضور إلى ألمانيا معها ليشهدا بنفسيهما هذا الرجل المدهش !

وكان أخو « أونيتى » - وهو « توم » - صديقاً لى

فى لندن ، وكنت قد قابلت أسرة « ردسديل » هذه من قبل ، لذلك اجتمعنا مرات عديدة خلال الأسبوع . وكانت تلك هى زيارتهم الأولى لألمانيا ، وكأن المسألة لاتعنيهم فى قليل أو كثير ، وكأن مستقبلهم ومستقبل وطنهم لايتوقف عليها ، بل عدوها رواية مسرحية غريبة جاءوا يشاهدونها ! . . وكانت اللادى ردسديل امرأة ضئيلة معتكفة ، مالم تصحب ابنتها لرؤية بعض الاستعراضات العسكرية ، تظل ، فى ركن من بهو الفندق تشتغل بالإبرة . وكان اللورد ردسديل رجلا طويلا جميلا ، ذا شارب أبيض كبير ، يسير كما لو كان مندهشاً مما يرى ، أو كأنه مدعو فى جماعة لايستطيع أن يتكلم أحد منهم لغته الانجليزية !

● ونظراً إلى حقيقة أن أونيتى معروفة بأنها صديقة هتلر ، فقد ظل البريد يمطر طوال الأسبوع اللورد ردسديل وابلا من الرسائل المتحمسة يتوسل إليه فيها أصحابها أن يبذل نفوذه لوقف وقوع الحرب ! .

وفضلا عن إحضار « أونيتى » أسرتها معها ، دعت أيضاً « روبرت بيرون » إلى نورمبرج . . وهو

شاب إنجليزى فى نحو الثلاثين ، اشتهر ككاتب وخبير بالفن الشرقى ، كما اشتهر بعدائه الشديد للنازى ، فكأن أونيتى قد أرادت جمع المتناقضات فى صعيد واحد ! . . ولما كنت قد عرفت روبرت بيرون فى لندن ، فقد خرجت معه خلال ذلك الأسبوع التاريخى نجوس خلال المدينة ، ونزور حدائق البيرة . فكان يقول : « إن هؤلاء الناس غلاظ الأكباد . . فإذا حاربناهم فإن حربنا ستكون معهم فى شبه حديقة هائلة للحيوانات » ! .

وحدث بعد ظهر أحد الأيام ، أن قصدنا فندق « ورتمبرجرهوف » لتناول الشاى ، وكان المطعم يعج بالموظفين والضباط ، تبدو عليهم علائم البهجة والمرح ، يتحدثون بصوت عال ، وكان يجلس إلى جانبنا الدكتور « سيلكس » محرر « الدوتش اللجماين زيتونج » والدكتور « ديتريتش » مدير المطبوعات ، والدكتور « فون ديركسن » السفير الألمانى فى لندن ، و « هر فون لوش » من وزارة الخارجية . فدعونا إلى مائدتهم ، وتحول الحديث بالطبع إلى حوادث اليوم . فأشار الدكتور « سيلكس » إلى مقال التيمس (الذى نصحت فيه

تشيكوسلوفاكيا بتسليم السوديت للألمان) ، وقال : إنه كان واثقاً من أن انجلترا ستثوب إلى رشدها قبل أن يسبق السيف العذل ، وتعرف أن تشيكوسلوفاكيا لاتعنى بريطانيا وإنما ألمانيا . فرأيت الدم يتصاعد إلى عنق روبرت بيرون ، ثم سمعته يقول بانفعال : « إن كل مايجرى فى القارة يعنى انجلترا دائماً . ومن حين إلى حين يكون من سوء طالعنا أن يقودنا رجال مثل تشمبرلين ، ولكن هذا شىء مؤقت ، فلا تنخدعوا . ففى النهاية ننهض دائماً من كبوتنا ، ونعارض الطغيان الذى يهدد أوربا . وقد سحقناه من قبل ، وأنذركم بأننا سنسحقه مرة أخرى » . فساد سكوت مروع ، ثم ضحك الهر « فون لوش » بلا ارتياح ، واقترح أن نتحدث فى أشياء « أقل جدًّا » . . وتراخت حبال الحديث ، فلما نهضنا لم يلح علينا أحد بالبقاء .

● وظل هتلر يبدو خلال الأسبوع كله مشغولا مهموما . ورفض استقبال الدبلوماسيين الأجانب ، أو حتى التحدث إلى مستشاريه . ولكنه بعد ظهر يوم السبت ، ظهر فى حفلة الشاى التى أقامها تكريماً له ، الهر فون ريبنتروب

وزير خارجيته . وكانت الدعوات محل نزاع شديد ، غير أن قائمة المدعوين كانت محدودة بسبعين شخصاً ، أكثرهم من الدبلوماسيين والمندوبين . وكان من حظى أن كنت بينهم . وفى الساعة الرابعة اجتمع المدعوون فى فندق « دتشرهوف » ، وكان « ريبنتروب » واقفاً بالباب ، يستقبل ، بابتسام وتواضع . وكانت قاعة المأدبة مزدحمة بموائد الشاى الصغيرة ، وعلى كل مائدة بطاقة فيها هذه العبارة : « الرجا عدم التدخين فى حضرة الفوهرر » .

وكان معظم رجال ألمانيا الكبار حاضرين ، أمثال « جورنج » و « جوبلز » و « هملر » و « هيدريش » و « هيس » ، وكثيرين غيرهم . وكانت الآنسة « أونيتى » هناك محوطة بالموظفين الذين يقبلون يدها وينحنون . وبدا عليها الحرج من مزيد التفاتهم ، فتركت جماعتهم وجلست إلى مائدتى . وبعد دقائق معدودة فتحت الأبواب على مصاريعها ، ودخل هتلر . فهب كل شخص واقفاً ، ووقف رجال الحزب الوقفة العسكرية بالتحية النازية .

ولما جلس الجميع حدق هتلر فيما حوله ، ولمعت عيناه فجأة عند رؤية « أونيتى » . . . ثم تبسم وأحنى رأسه ،

وحياها بتحية النازى . . . فردت عليه التحية ، وبعد دقائق ، جاء الكابتن « فايمان » ياور « هتلر » إلى مائدتنا ، وهمس فى أذن « أونيتى » قائلا : « إن الفوهرر يود رؤيتها ويرجو حضورها بعد الشاى إلى شقته » . فانحنت « أونيتى . . . »

وعجبت لأن يكون الشخص الوحيد الذى يرتضى هتلر لقاءه - على حافة الحرب بين ألمانيا وبريطانيا العظمى - هو فتاة انجليزية فى الرابعة والعشرين . .

وبعد الحفلة اجتمعت « أونيتى » بـ « هتلر » وعادت إلى « الجراند أوتيل » قبيل العشاء . فأسرعت إليها أسألها : هل تظن أن الحرب واقعة ؟ . فابتسمت قائلة : « لا أظن ذلك ! . فالفوهرر لايريد أن ترمى مبانيه الجديدة بالقنابل ! . » .

وعقبت على ذلك : بأنها لم تر قط هتلر فى مثل هذا الروح الجزل ، فهو يقول : « إن مما يثيره جداً رؤية العالم كله يرتجف أمامه . وهو بحاجة إلى الإثارة مثل حاجة غيره من الناس إلى الطعام والشراب » .

● ما كان أشد انزعاجى لسماع أن هتلر يستمتع ، فى حين أن الناس فى كل أوربا يتقلبون فى فراشهم !

ولم أنتظر حتى أسمع خطاب هتلر فى يوم نورمبرج الأخير . فبعثت بمقالى إلى « السنداى تيمس » وقررت العودة إلى باريس ، حيث أستطيع أن أجمع ثياباً ونقوداً لأسافر منها إلى براغ إذا ساء الموقف . . وقبل أن تتحرك الطائرة جاء روبرت بيرون يودعنى ، فقال : إن اللادى ردسديل ـ والدة أونيتى ـ ، قد أضاعت إبرة التطريز ، فراح زوجها اللورد يبحث عنها ، وهو مكب على يديه وركبتيه فى وسط بهو « الجراند أوتيل » . . وذوو الأحذية الثقيلة من جنود العاصفة وضباطها ، يروحون ويجيئون من حوله . . .

« ما أشبه ذلك بانجلترا . . فهى تبحث عن الإبرة فى غِمد سيف » ! . .



٣

البرنس فيليب البروسى يتحدث عن الفوهرر . . إذا تخلت أمريكا عن الحرب ، وضعت الحرب أوزارها . .

● إنى أحب « ڤرجينيا كاولز » هذه الزميلة الأمريكية التى تبحث بكل اطمئنان ، فى أوربا التى ترقص على البارود ، عن « تعب السر » ! . . وهى لاتعرف الأسلوب المزركش المبرقش ، بل تتجه إلى الواقع رأساً ، بأصدق مايمكن من الوصف ، وأقل مايمكن من الألفاظ . فهى ليست من الصحفيين الذين يتكررون كل يوم ، فلا تجد طعماً لموضوعاتهم التافهة ، ولا مذاقاً لألوانهم المتشابهة . هذه هى الصحفية الجديدة التى تكره الإنشاء والزخرفة ، بل تبنى من صميم الوقائع بيانها . فلنستمع إليها :

كانت حملة النرويج وفشلها هى العاصفة التى اكتسحت المستر « تشمبرلن » من الحكم . ففى يوم ١١ مايو ١٩٤٠ - اليوم التالى لاجتياح الألمان هولندا ، وبلجيكا - استقال تشمبرلين وأصبح « ونستون تشرشل »

رئيساً للوزارة . . وفى اليوم الذى أعلنت فيه الحكومة البريطانية الانسحاب من النرويج ، أى ٢ مايو ، سافرت إلى روما على متن طائرة .

وقبيل سفرى قابلت المستر « تشرشل » فى دار مورين ستانلى ، فوجدته قوى الروح ، مشرقها ، رغم الأنباء التى كانت فى حينها تخلع الفؤاد . فلما أخبرته أننى مسافرة إلى روما ، وسألته : هل يظن أن الطليان سيدخلون الحرب ، هز رأسه قائلا :

« إننى لا أدرى . وأرجو ألا يفعلوا . فإنى شديد الميل إلى الشعب الإيطالى . . . ولكنهم إذا فعلوا (وهنا لمعت عيناه) فإننى واثق من شىء واحد ، هو أنه لايعود من الضرورى الذهاب إلى آثار « بومباى » لرؤية الخرائب والأطلال » ! .

● قضيت أكثر وقتى فى روما متحدثة مع الخبراء الاقتصاديين ، والملحقين البحريين والحربيين ، محاولة أن أسبر غور قوة إيطاليا العسكرية . وكانت الإشاعات تزداد يوماً عن يوم . وعندما وصل البرنس « فيليب أوف هيس » فجأة إلى روما ، بلغت حرب الأعصاب

مداها ، فالبرنس فيليب أمير ألمانى وهو قرين الأميرة « مافالدا » كريمة ملك إيطاليا . وهو نازى متعصب للنازية إلى حد الهوس ، وقد عهد إليه هتلر أن يعمل كحلقة اتصال بينه وبين موسولينى .

وكنت قد قابلت البرنس فيليب فى الصيف الماضى ، عند نزولى مع « مونا وليامز » فى جزيرة « كابرى » القريبة من « نابولى » ، فرأيت فيه ألمانياً غليظاً ، نصفاً فى العمر ، دمث الطبع ، مفتوناً بعبادة هتلر . وهو ابن أخت القيصر السابق « غليوم الثانى » ، وكان الفرد الوحيد من فرع « هيس » الكبير الذى اعتنق النازية ، فينظر إليه أهله لذلك ، كالشاة السوداء فى الأسرة ! . . وقد التحق بالحزب قبل أن يتولى هتلر السلطة ، وكوفىء فى عام ١٩٣٣ بتعيينه حاكماً على المقاطعة البروسية « هيس - ناساو » .

وكان يجىء كل صباح ليذهب مع صديقتى « مونا » للسباحة . وكان رجلا لطيفاً بسيطاً ، يجد لذة فائقة فى النظر بتلسكوب قوى ، من شرفة الفندق ، إلى الزوارق الصغيرة المنتشرة فى ميناء « نابولى » ، تحوم حول جزيرة

« كابرى » ، وركابها عادة من كلٍّ زوجان اثنان ، وهم غالباً من العشاق الهائمين ، فيرقب الأمير ـ بشغف ـ أشكال العناق والتقبيل ! . .

● وقد ناقشنى مرة واحدة فى موضوع ألمانيا . فعندما تكلم عن هتلر أبرقت عيناه وسبح بحمد « الفوهرر » وشخصيته الخارقة للعادة ومرحه ، وصداقته ، وطيبته وخفته ! . . قال لى : إن هتلر وموسولينى هما بلا ريب أعظم رجلين شهدهما العالم . ولما ذهب موسولينى إلى ألمانيا لتوقيع ميثاق « ميونخ » ، سافر البرنس فيليب إلى الحدود لاستقباله . وقال : إنه من اللحظة التى التقيا فيها ، وضع الديكتاتوران رأسيهما معاً ، وبعد خمس دقائق كانت مسألة تشيكوسلوفاكيا قد حلت . . وعلق البرنس فيليب على ذلك بحماسة قائلا : « هذا ما أحبه . . الرجال الذين توافقت عقولهم ويعرفون مايريدون » . .

ثم أضاف إلى ذلك : إنه وإن كان الديكتاتوران يشتركان فى كثير من الصفات الأساسية ، فهما فى طباعهما ، على طرفى نقيض . فبينا نجد هتلر اجتماعياً ،

نرى موسوليني من المعتزلة . وبينما يحب هتلر دعوة الناس إلى بيته ، نلقى موسوليني قلما يستقبل الناس إلا فى مكتبه . وفى حين أن هتلر يثق بكل إنسان ، لايثق موسوليني بأى إنسان .

قال الأمير فيليب : « وبالطبع ، ماكان أحدهما ليصلح فى بلاد الآخر . تصورى أنه إذا وثق الحاكم بكل إنسان فى إيطاليا ، فإنه لايبقى فى دست الحكم أسبوعاً واحداً » ! . .

● والآن ، وقد بدأ هذا الربيع المضطرب ، الذى يغلى بالقلق ، فإن البرنس فيليب ـ بداهة ـ قد عاد فى مهمة ، فقرأت باهتمام خبر وصوله ، ولكنى ـ لما كنت من الأشخاص غير المرغوب فيهم ـ لم أتوقع مقابلته . على أننى عدت يوماً إلى الفندق ، فوجدت دعوة منه للذهاب إلى القصر فى الساعة السادسة لتناول الكوكتيل . فتوقعت أن أجد حفلة كبيرة ، ولكننى لما وصلت وجدتُنى المدعوة الوحيدة . وكان فى انتظارى فى البهو ، فحيانى بحرارة ، ثم أخذنى إلى قاعة الاستقبال ، ومزج لى كأساً من الكوكتيل ، وقال :

« لقد سمعت بأنك قضيت الشتاء فى فنلندا (فعجبت كيف يعرف الألمان دائماً كل شىء!) فأخبرينى عما شهدتِ. فإنى شديد الإعجاب بالفنلنديين».

وظل عشر دقائق يمطرنى بالأسئلة، ليقاطعنى من فترة لأخرى مثنياً على مقاومة الجنرال «مانرهايم» الباسلة. ودخلتْ خلال الحديث زوجته الأميرة مافالدا..

فقال: «إنى كنت أتحدث عن فنلندا، وعبرت لڤرجينيا عن شدة أسفنا فى برلين، لعدم إمكاننا مساعدة الفنلنديين.. ولكن حال - طبعاً - ميثاقنا مع روسيا دون تدخلنا»..

فقالت البرنسس مافالدا: «ولكنك أخبرتنى ياعزيزى بأنكم تدخلتم فعلا!.. وقلت لى إنكم أقنعتم الفنلنديين بإمضاء معاهدة الصلح مع الروس، مع وعدكم بتسوية الأمور لهم فيما بعد...»

فاحمر وجه البرنس فيليب: «يقيناً أنك مخطئة، إذ لم يحدث شىء من ذلك. وكان من المستحيل علينا التدخل.. ولا ناقة لنا فى الأمر ولا جمل»!..

ثم حدجها بنظرة . . فلزمت الصمت . وتركت الغرفة بعد دقائق . .

فجرعنا كؤوس الكوكتيل وتبادلنا الدعابات .

وبدا غريباً أن أكون الضيفة الوحيدة ، وطفقت أتساءل وأتطلع إلى مايدور فى خلد البرنس فيليب وما ينسجه عقله . . وإذا به يعرج بغتة على موضوع الحرب ، وضحكت عيناه ، وهو يقول :

— لقد حدثتك الصيف الماضى عن عبقرية هتلر . إذن فاعلى أنى أعتقد الآن أنه أعظم من عبقرى . أتعرفين أنه هو الذى رسم خطة اجتياح بولونيا ، والنرويج بنفسه ؟! أظن أنه أعظم رجل وجد حتى الآن على ظهر الأرض . فلم يوجد رجل غيره استطاع أن يأخذ عاصمتين فى يوم واحد ؛ «أوسلو» عاصمة النرويج ، و «كوبنهاجن» عاصمة الدانمرك . . . فى خلال اثنتى عشرة ساعة ! . . إنها كانت حتما مفاجأة للبريطانيين . . أو لم تكن كذلك ؟ ؟ . .

فأجبته : بأنها كانت كذلك . وعندئذ قال : «بداهة ، إن الحرب الحقيقية لم تبدأ بعد . فعندما تبدأ ،

سيكون التخريب والتدمير على مدى لم يسبق له مثيل ، إن نصف أوربا سيصبح عاليه سافله . ومن دواعى الأسى أن هذا لزوم ما لا يلزم . ويمكن الحيلولة دونه ، إذا رأت بريطانيا العظمى أين الرشد من الغى . وبالطبع سيكلفها هذا بعض النفوذ ، ولكنها يجب أن تتجرد من أفكارها العتيقة ، وتتحقق من أن الدنيا تتغير ... وإننى أحب الإنجليز حباً جماً . فالدم الانجليزى يجرى على أى حال فى عروقى ، وجدتى هى الملكة « فكتوريا » . . بيد أنى أعرف شدة عنادهم . . وإن من المروع أن يجلبوا كل هذا الشقاء على العالم . وفى وسعى أن أؤكد لكِ أن هتلر عميق التـــأثر لذلك . وقد ذهبت معه إلى « ڤارسوفيا » ، فلما رأى الخراب والدمار ابيضت عيناه من الحزن ، ولن أنسى ذلك ماحييت . وقد التفت نحوى عندئذ وقال : « ما أشد شر هؤلاء الناس الذين قاومونا واضطرونا إلى فعل مافعلنا . . . »

ومضى البرنس فيليب يقول : « إنى لست قوى الأمل فى أن تثوب انجلترا إلى رشدها عن طيبة خاطر ، ولكن أمريكا بالطبع تستطيع أن ترغمها على ذلك . . »

إذن فإن حفلة الكوكتيل هذه ، كانت قد أقيمت من أجل هذا . . فسألته بدهشة : « كيف ؟ » .

— المسألة بسيطة جداً . فإن كل ما على أمريكا أن تفعله ، هو أن تخبر انجلترا وفرنسا صراحة بأنها لن تقدم إليهما أية مساعدة . فإذا وقفت موقفاً حازماً بما فيه الكفاية ، فإن الدولتين تضطران إلى الاتفاق . . وأنتم أيها الكتاب الأمريكان تستطيعون أن تستخدموا تاثيركم فى هذا الصدد . . . فمن الفاجع أن نفكر فى كل تلك الأشياء الجميلة فى أوربا التى ستصبح هشيما تذروه الرياح . . .

— ولكن من هو الذى يسحق تلك الأشياء ويذروها فى الهواء ؟ ! إنهم ليسوا البولونيين بالتأكيد ، ولا الدانمركيين ، ولا النرويجيين .

— ولكن ، أفلا تفهمين ؟ ! إنه فى جميع تلك الظروف ، كانت يد بريطانيا فوق أيدينا ، تضطرنا . .

— ففى هذه الحالة ، أتظن حقاً أن هتلر سيكون مستعداً لعقد الصلح ؟ . . إنى أعتقد أن الحقد فى هذه الآونة قد اشتدت مرارته .

— كلا ، مطلقاً . وإنى واثق من استعداده للصلح ، فهتلر رجل عملى فى كل الأوقات ، بل لعله أعظم رجل عملى عرفته ، فهو لن يدع الاستياء أو الغضب يؤثر فى حكمه .

— إن العالم بلا شك لاينظر إليه على هذا الضوء ، فإذا كان هناك رجل قد خلق صورة للهوى وعدم الاستقرار ، فهو ذاك الرجل .

فابتسم البرنس فيليب :

— أوه ! . . . إن هذا هو الطبع الألمانى ، لا أكثر ولا أقل . فنحن الألمان نحب قسطاً من الدراما . . وهذا مجبول فينا ، كما يُعرف الإنجليز بالإفراط فى التحفظ والتحرز .

وفى الشهور التاليـة ، فكرت كثيراً فى هذا الحديث الغريب . . . وبعد انهيار فرنسا ، أعلن هتلر أن الحرب « فى الغرب » قد انتهت . وإنى واثقة من أنه كان يعتقد أن فى إمكانه إقناع انجلترا بعقد الصلح ! وكانت العقدة طبعاً هى : « خسارة بعض النفوذ » . .

٤

ماذا حدث فى روما ، ذات مساء ، عندما اجتاح الألمانى الأراضى الواطئة . . . الدول تتساقط واحدة بعد واحدة كأوراق الخريف . . .

● فى صباح الحادى عشر من شهر مايو ، زحفت جحافل الألمان على الغرب ، كما كان ينتظر . . وكنت قد ظللت فى العشية ، حتى الثانية صباحاً ، أكتب مقالى إلى « السنداى تيمس » الذى كنت رتبت تبليغه إلى لندن من روما بالتليفون بعد ظهر الغد ، فعملت فيه طويلا وجهدت كثيراً .

فنى الساعة الثامنة من الصباح ، دق جرس التليفون وسمعت زميلى جون هوايتكر يقول : « مزقي مقالك ، ياحبيبتى ! فلا يريد أحد أن يقرأ الآن عن البولونيين شيئاً ! . . فقد اجتاحت جيوش هتلر هولندا ، وبلجيكا » . .

فتواعدت مع جون على العشاء ، وقررت السفر إلى باريس فى اليوم التالى ، وبدأت أرتدى ثيابى . وبينا كنت أسرح شعرى دخلت الوصيفة ، وهى امرأة

نَصَفّ سمينة ، فأغلقت الباب وراءها ، وكانت تولول ، وتنتحب على مصير بلجيكا ، وهولندا ، وهى تخبرنى عن النبأ الحزين . .

● وقضيت أكثر ساعات بعد الظهر فى الحصول على التأشيرات اللازمة لجواز سفرى . . وكان الجو صحواً جميلا . . . وبينا المركبة تسير بى خبباً إلى القنصلية الفرنسية فى الشوارع الملتوية ، رأيت الزهور منبثقة ناضرة متفتحة ، فكان يتعذر تصوّر أنه فى هذه الحالة نفسها كانت المدافع تطلق نيرانها ، والدماء تجرى أنهاراً . . ولكنى لما وصلت إلى القنصلية ، دنا التصور من الحقيقة ؛ فقد كانت الغرف مزدحمة بقوم تبدو عليهم علائم القلق والجزع ، وكلهم يحاول العودة إلى فرنسا . . وكم فكرت بَعد ذلك ، فى أنه من كثرة مارأى الناس وجوهاً كاسفة من الهلع كالحة ، لن يعرف أحد فى أوربا الآن كيف يكون الابتسام .

وخرجت للعشاء مع زميلى « جون هوايتكر » والملحق البريطانى البحرى « تافى رود » ، وسكرتير السفارة البريطانية « جورج لابوشير » ، ثم سمعنا بعد

العشاء نبأ تعيين « تشرشل » رئيساً للوزارة ، فقررنا الاحتفال بذلك ، وانطلقنا إلى قهوة بوهيمية صغيرة فى ضواحى روما ، فعزفت لنا موسيقاها النغمات التى نحبها ، وشربنا إبريقاً من النبيذ ، وغنينا حتى شبعت قلوبنا غناء . . ولم نشعر برغبة فى النوم فأخذتنا السيارة إلى قمة المدينة ، وأشرفنا على روما فى تلك الليلة الرائعة . وكانت السماء تتألق بنجوم لاعداد لها ولا حد لبهائها . . وكان شبح « الفاتيكان » يبدو إلى الغرب . . وكانت إلى الشرق تنبعث الأضواء من تلال روما السبعة . . وكأن السماء والأرض قد امتزجتا فصارتا كوكباً واحداً . فصارت النجوم أنواراً ، وصارت الأنوار نجوماً ، كلها تجرى فى كوكب مظلم واحد .

ولما تنصف الليل عدنا إلى بيوتنا . وكانت الشوارع مقفرة ، فكان صوت السيارة يتغلغل فى أعماق السكون . ولم نلبث أن رأينا جماعة من الناس واقفين فى ركن ، ثم جماعة أخرى مثلهم فى ركن بعده ، ثم جماعة ثالثة مثل هاتين الجماعتين فى ركن ثالث ، فدهشنا ، وتساءلنا : أيحدث انقلاب فى الحكم فى إيطاليا ؟ ! أهو زحف

جديد على روما ؟ ! فقد كان مظهرهم كالجنود المحاربين فى الزمن الخالى .

● ودخلنا ساحة « بيازا بربرينى » ، واتجهنا إلى شارع « ڤيا ڤيتوريو ڤنيتو » حيث فندق « رچينا » . ولما وصلنا إلى الفندق ، رأينا على جانبى الباب إعلانين ملصقين على الجدران ، ترجم لنا جورج عنوانهما : « انجلترا فاتها الأوتوبوس » ! ثم تتلو ذلك حملة عنيفة وصفوا فيها البريطانيين بأقبح النعوت من الجبن إلى الانحلال .

فقرأناها مستنكرين مستنكفين ، وقال جون : « إذن فهذه الفِرَق المجندة كانت من أجل ذلك » ؟ !

وشب جورج حتى لمس بيده إعلاناً منهما فأحس به لايزال مبلولا . ولم يكد يفعل ذلك حتى تعالت صيحات وحشية : « انجليزى ! . انجليزى ! .. » وكانت عصبة الفاشست المحاربة فى الطريق ، متربصة فى الركن .. فظنت ، بداهة ، أننا نحاول تمزيق المنشورات ، فاندفعوا نحونا ، وهزوا قبضات أيديهم ، صائحين . . وكانوا على الأقل نحو خمسين رجلا ، فسقطوا على « جورج ، وجون ، وتافى » يلطمونهم ويرفسونهم من كل جانب .

وكانت الضجة مرتفعة ، فخرج صاحب الفندق إلى الرصيف - فى البيجاما - وحاول أن يعيد النظام ، ولكنه سقط فى الحال صريع اللكم أيضا . .

ووقفت إلى جنب الباب لا أدرى ما أفعل . وكان وجه جورج يدمى ، وقد دفعوه نحوى ، فى حين كان صاحب الفندق قد تحامل على نفسه ، ونهض من عثرته ، فحاول أن يدفعنا كلينا إلى داخل الباب ويغلقه بالرتاج . . وقال متهيجاً :

— مهما يحدث فلا تفتحا الباب . . . وسأدق التليفون للبوليس . .

فلم ألبث أن عصيته . فإن الضوضاء خارج الفندق كانت تزداد ارتفاعاً ، فتصورت جون ، وتافى ، ملقيين فى بركة من الدم على الرصيف . . وكنت أعرف أننى إذا فتحت الباب فإن كل امرىء سيندفع إلى الداخل ، ولكنى رأيت أن اختلاط الحابل بالنابل قد ينفعنا . . ولما كنت - أنا نفسى - غير مهددة بشىء ، لقلة احتمال ضربهم امرأة ، طلبت إلى جورج أن يختفى ، ثم أزحت رتاج الباب الحديدى الثقيل . . ورجعت القهقرى

مسافة . . وبعد لحظة كان الغوغاء قد ملأوا صحن الدار .
فهرع عندئذ صاحب الفندق من مكتبه صائحاً كالمخبول :
« ماذا صنعتِ ؟ ! . . » ولكنه لم يلبث أن أصابته
لكمة صرعته للمرة الثانية . وكان تافى وجون قد جرهما
الزحام ، وبرغم بعض الندوب والجروح والرضوض ،
صمدا . ولكن كان الظاهر أنهم يطالبون برأس جورج ،
لأن الجو امتلأ بصيحات : « الإنجليزى الآخر ! . . »
وما كان أشد قنوطى إذ رأيت جورج قد ظهر . .
فرأوه . وكانت لحظة شنيعة . . فإن تافى وجورج كانا
لا يريدان ضرب الناس حتى لا يتسببا فى « حادث دولى » . .
فى مثل ذلك الوقت العصيب . . وكان جون لا يريد
أن يخسر وظيفته كمراسل دائم فى روما لجريدة « شيكاغو
دايلى نيوز » . ولما كنت لا أتكلم الإيطالية ، فقد حاولت
أن أبذل جهدى بالفرنسية فقلت لهم : « أيها السادة ! . .
من فضلكم ! . . إنه زوجى ! . . زوجى ! . . » وكررت
كلمة « زوجى » مؤملة أن تكون كلمة « الزوج » فى الفرنسية
والإيطالية متقاربة ! . . وتحولت نحو رئيس العصبة ،
أتوسل . . فالتفت إلى أتباعه وفاه ببضع كلمات ، فبدأوا

جميعاً يتكلمون فى وقت واحد . . وفجأة ، شق شخص جديد لنفسه طريقاً فى غمار الزحام . وكان شاباً إيطالياً أسمر ، فى قميص أسود وحذاء ركوب الخيل ، وبيده سوط ، فتكلم بصوت مرتفع ، مشيراً إلى جورج ، وهو يهز سوطه . فبدا على رئيس الجماعة كأنه يقول شيئاً مخالفاً ، محتجاً . فصرخ القادم الجديد : « أخبروها بالخروج من هنا إذن » . . فردد الآخرون صرخته ، ولوحوا بقبضات أيديهم ، وبدا على رئيسهم القلق . فمضيت أتوسل إليه ثانية ، مدعية أن جورج زوجى ! . . فظهر السخط على صاحب السوط : « جروه إلى الشارع » . . فصاح بعض العصبة « نعم ! نعم ! » . . وبدأوا يزحفون . . وصاح الآخرون ـ وفيهم رئيسهم ـ : « لا ! لا ! » . . ودفعوهم إلى الوراء . . وقبل أن نتبين ماذا يجرى ، رأينا العصبة قد انقسمت إلى فريقين ، وبعد دقيقة ، كان كل فريق يمعن فى الآخر ضرباً موجعاً ! . . فكأنه فيلم سينمى هزلى ، سقطت فيه الأجسام أرضاً ، وألقيت الكراسى والمناضد هنا وهناك . .

فصحت فى جون : « هذه فرصتنا ، فلننتهزها »

واندفعنا ـ نحن الأربعة ـ إلى المصعد وضغطنا على الزر ، ولم نلبث أن خفت فى آذاننا ضجة تلك العصبة الشريرة ، ونجونا بجلودنا ، وصعد صاحب الفندق ، وقد عصب رأسه ، قائلا : إنهم غادروا الفندق . ودق جورج التليفون للسير « نويل شارلس » الوزير البريطانى ، ليخبره بالحادث ، فوصل الوزير بعد نصف ساعة إلى الفندق ليأخذهم إلى بيوتهم بسيارته .

وذهبت إلى فراشى فلم أسمع بتتمة القصة إلا فى الصباح . . وعندما خرج جون والإنجليز الثلاثة إلى الشارع ، كان الغوغاء يتربصون بهم فى الناصية ، فهرعوا مسرعين إليهم ثانية ، وأحاطوا بهم . . وظلوا يضطهدونهم بالأسئلة أكثر من ساعة ، ويدفعونهم ويحشرونهم ، ويأبون أن يدعوهم يذهبون . . ولكن الظاهر أن إشارة : « هيئة سياسية » على سيارة السير نويل ، كان لها أثرها فيهم ، لأن أحداً منهم لم يجرؤ على الضرب . . . أما البوليس فقد كان غيابه ملحوظاً كل هذه المدة ، وبداهة كانت الأوامر صادرة إليه بعدم التدخل ، فقد جاء جنديان ، ورفضا أن يقدما

أية مساعدة . . ومر جندى آخر بعد ذلك ، وفرّق الناس رغم استنكارهم تصرفه ! . .

وغادرت روما إلى باريس فى اليوم التالى ، وحاولت قبيل ذلك ، أن أصرف شيكا من أحد المصارف ، فقالوا لى : إن النقود الانجليزية لم تعد مقبولة فى إيطاليا . فسرت عائدة إلى الفندق ، عن طريق فيه « سبيل » ماء أثرى بشارع « دلمورات » ، تدعو أسطورة قديمة السياح والمسافرين من روما إلى إلقاء قطعة من النقود فى حوضه ، حتى يكفلوا عوداً سريعاً . فهرولت واضعة يدى على كيس نقودى ، لأستوثق من أنه مقفل إقفالا محكما ! . .

● وبعد ٢٤ ساعة من وصولى باريس ، هرعت إلى « فروتى متكالف » ياور « دوق وندسور » - ملك انجلترا السابق - ؛ فقال لى :

— لقد فعلوها ! . .

— من فعل ؟ . . . ماذا ؟

— لقد اجتاز الألمان نهر « الموز » فى ثلاثة مواضع ، ودخلوا إلى فرنسا عند « سيدان » . .

— وما معنى هذا ؟

— سبحان الله ! . . معناه أى شىء ! . . فقد يكون معناه أنهم سيصبحون فى باريس بعد أسبوعين ، إن لم يكن قبل ذلك ! . .

فحدقت فى فروتى غير مصدقة . . لأن انجلترا وفرنسا كانتا تعدان العدة لهذا الهجوم منذ تسعة أشهر . وقد حاصروا ألمانيا خلال هذه الشهور التسعة حتى يضطروها إلى تحطيم رأسها فى صخرة الصلب والأسمنت المسماة « خط ماجينو » ، وقد بسطوا الدعوة إليها بلسان الجنرال « ايرنسايد » قائد القوات الامبراطورية الذى قال : « هلم ياهتلر ، فنحن على استعداد لك » . وكان الخوف من عدم هجوم الألمان ، هو الذى يخشى منه ، لامتداد الحرب عندئذ إلى سنوات . فلما جاء الغزو أخيراً ووقعت الواقعة ، تنفس الناس الصعداء ، وقالوا : « أخيراً قد ظهرت نهاية الحرب » ! وكان ينتظر أن يكون النهر عقبة فى وجه الألمان ، ولكنهم اجتازوه على دبابات عوامة ، كما يجتاز البط بركة ماء . .

هذه ليست حرباً ولكنها سباق . فلا يكاد الإنسان

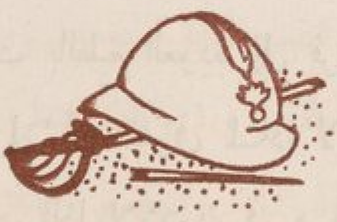
يعلق بالدبابيس خريطة على الحائط حتى ينتهى عملها . ومنذ أربعة أيام فقط ، قضى الدوق ساعتين فى البحث فى المكاتب عن خريطة هولندا . فلما أنزلها هذا الصباح قال : « أى دولة عليها الدور الآن يافروتى ؟ ... أظن أننا الليلة سننزل بلجيكا ونعلق فرنسا ! . . . »

● وسرت فى « الشانزليزيه » ، ونزلت فى « فوبور سانت أونوريه » . ووقفت عند السفارة البريطانية لأقابل السير « شارلس مندل » . . فسألته أن يحصل لى على إذن بالسفر إلى ميدان القتال البلجيكى . فنصحنى بالحصول عليه من لندن . . . فوجدت الناس فى لندن يتوقعون ، بين ساعة وأخرى ، هجوماً فرنسياً مضاداً . . وتعشيت مع ضابط بريطانى من أركان الحرب ، عقب تسليم الجيش البلجيكى بقيادة ملك البلجيك فى ٢٨ مايو ، وكنت قد قررت بالطبع العودة إلى فرنسا . . فقال لى الضابط : « حاولى أن تعرفى لماذا لايريد الفرنسيون أن يحاربوا ؟ . ولماذا لايثبتون فى مراكزهم ؟ . ولماذا لايريدون مواجهة العدو ، أو حتى مشاغلته ؟ . ولماذا لايعملون على صد هجماته ؟ » . . .

ولما انهارت بلجيكا ، حاولت أن أحصل فى لندن من السفارة الفرنسية على تصريح بزيارة جبهة القتال .. فظلوا يراوغوننى ويبدون لى استحالة تكليفى بمثل هذه الزيارة رسمياً . . غير أنهم سيرتبون لى « جولة » فى الميدان . .

ومرت الأيام . . وأخيراً ، فى صباح الاثنين ١٠ يونية ، دقت لى وزارة الاستعلامات الفرنسية التليفون ، واقترحت علىّ أن أذهب إلى باريس ، وأتمم هناك تفاصيل جولتى . . وختم القنصل الفرنسى جواز سفرى بخاتم : « صالح لمدة شهر » . .

وكان ذلك قبل أن يحتل الألمان عاصمة الدنيا بأربعة أيام ! . . .



٥

لا كرامة لنبي في وطنه ......
هذه الجزيرة المهددة بالغزو ....
نبوءة الشاعر سوينبورن المروعة ...

● تنبأ الصحفى الشهير « دوجلاس ريد » فى كتابين ، وفى مقالات عديدة قبل الحرب الحاضرة بأعوام ، عن كثير مما وقع . . وقد ظل عشرات السنين بعيداً عن وطنه ، يقطع أوربا من أقصاها إلى أقصاها ، ينظر ، ويسمع ، ويدرس ، ويستنتج ، ويكتب ، ولكن لا كرامة لنبى فى وطنه .

لقد كان دوجلاس ريد يتوقع الاتفاق « الألمانى ـ الروسى » ، الذى نشأت عنه الحرب الحاضرة ، وحذر منه .

أما كتابه : « نبى فى وطنه » ، فقد وضعه عن بلاده التى عاد إليها بعد طول الغياب ، لأنه رأى الحرب تدنو منها ، والأعداء يهددونها بالغزو ، فلم يطاوعه قلبه على أن يكون ، فى وقت الخطر ، فى غير منطقته . . .

إن هذا الكتاب هو صورة انجلترا فى أتون

الحرب . . ولقد عاش الكاتب حتى رأى بلاده تنجو من الكارثة العظمى ، التى كانت تهددها فى صيف ١٩٤٠ ، بعد انهيار فرنسا . . . وهو الآن مؤمن بخلاصها من مخالب الانكسار . ولكنه يعتقد أن النصر الحاسم يتطلب تضحيات مضاعفة ، لابد من بذلها ، حتى تكسب انجلترا الحرب ، ثم تكسب السلم .

والكتاب مكتوب بذلك الأسلوب العصبي ، الحار المتجدد ، المتدفق ، الفوار . . . الذى تميز به دوجلاس ريد ، وأحله تلك المكانة الرفيعة فى عالمى الصحافة والسياسة . .

* * *

● قال شاعر الإنجليز « سوينبورن » فى عام ١٨٨٦ :

« . . . أسفاً على أنه ليس لنا حليف يسندنا ويساعدنا ، وقد آن الأوان لخلعنا ونهايتنا . . دع الألمان يضعون أيديهم فى أيدى الفرنسيين ، وحصن انجلترا سوف ينهار . . . »

فلما قرأت هذا فى مايو ١٩٤٠ ، بدا لى كنبوءة مروّعة محققة ، ثم لما أعدت قراءته فى فبراير ١٩٤١ ، أشرق عندى الأمل بأن نبوءة الشاعر أضغاث أحلام . . .

وقد كنت أستمع إلى الراديو الألمانى ، فوجدت المذيع يسرح ، ويمرح ، ويردد بنغمات الشماتة : « إن الإنجليز قد حوصروا فى « دنكرك » كأنهم فى زجاجة ! . وجيوشنا حولهم من كل جانب . فلن يجدوا هذه المرة سبيلا إلى تكرار هربهم الظافر من النرويج !. إننا لن ندع فأراً واحداً ينجو ! ! . . »

فشعرت بالضيق من تصور ماهو حادث عبر هذا الماء . . الذى مازال يجرى هادئاً ، فى الشمس ، فى سلام . . فأقفلت الراديو ، وخرجت إلى دروب ميناء « دلموث » . . بمشاهدها المعهودة لى . . الزوجات يعددن الطعام لأزواجهن . . والأولاد يعبثون بالمياه . . والكلاب تتمدد متراخية من الحر . . والعلم مرتفع قليلا . . وما من قارب أو سفين . . حتى تلك « الفلوكة » الصغيرة العتيقة « عصفورة البحـــر » قد أقلعت إلى « دنكرك » ! . . لقد أصبحتُ مديناً لها ! . إنى كل مرة أراها الآن أهمس لها : « أيتها العصفورة المنتوفة الريش ، لقد أنقذت انجلترا ـ بريطانيا ـ البيت الأبيض الصغير ، وأنقذتنى . . وأنقذت كل شىء . . فبورك فيك ! . »

إن كل ولد فى بريطانيا قد أصبح مديناً لكل سفينة ذهبت إلى « دنكرك » ، وعادت منها ، أو لم تعد . .

حتى ذلك الشيخ الذى نيَّف على السبعين ، أعتق شيخ ، صاحب أعتق يخت ، كان يجثو على ركبتيه ، شكراً لله ، أن أتاح له هذه المغامرة الكبرى من أجل وطنه ، فى مثل سنه . .

هاهى ذى انجلترا من حولى ، تستيقظ للحياة مرة أخرى ! والراديو الألمانى ، فى الصباح ، والظهر ، والليل ، يتغنى بأنباء « دنكرك » . . يشيد بالقضاء على الجيش البريطانى ، وسقوط انجلترا ، ولكنه لايقول بسقوط « دنكرك » ، أو أن الجيش البريطانى قد أُسِرَ إلى آخر رجل ! . .

ومر يوم ، وما زلت أسمع أننا ننقل الرجال ! . ويوم آخر . . وما زلنا نخرج من فم الزجاجة ! ! سبحان الله ماذا جرى ؟ ! هل سيضيع هتلر هذه الفرصة ؟ ! ومر يوم ثالث ، ورابع ، وخامس ، وعدد الرجال الناجين فى صعود . .

● وهكذا عندما لاح أن الأمل قد مات ، بعث

الأمل . . ثم تحدث المستر « تشرشل » فى الراديو يوم ٤ يونيه . . . الله فى عون رئيس الوزارة هذا ، الذى تولى الحكم فى مثل هذا الظرف ، كل ماحوله خراب ، كما لو كان قد تعين مديراً على بنك مفلس ! . .

ولما أذاع فى ١٣ مايو قوله : « ليس عندى ما أقدمه لكم غير الضنى ، والعرق ، والدمع ، والدم . . . » قلت فى نفسى : « أصبت ! . فليس عندك ! » .

إن خلاصة الجيش البريطانى ، وعصارة الجهد ، الذى بنوه بالعرق ، والدم ، كان مهدداً بالهلاك فى مكانه ، أو أن يسير إلى الجوع فى الأسر . .

وكان تشرشل يؤمل إنقاذ عشرين أو ثلاثين ألفاً . . . فعجبت من إمكاننا إنقاذ هذا العدد الكبير . . وإذا به ينهض فى ٤ يونيه ، ليعلن أن نحو ألف سفينة ، من الأسطول الحربى ، والأسطول التجارى ، ومن خاصة الأهالى ، ومن كل نوع ، وشكل ، وحجم ، قد حملت ٣٣٥,٠٠٠ رجل ، من فرنسيين وإنجليز ، وأنقذتهم من براثن الموت والعار . . .

إننى لا أومن بالمعجزات . ولكننى أومن بالقوة

البشرية والإرادة . . وهذه كانت معجزة لقوة الإنسان ، وإرادته ، وتضحيته ، ومحبته . .

إن الجلاء عن « دنكرك » يكاد يكون لغزاً لاتفسير له . . . فقد اكتفى المذيع الألمانى بأن أرغى وأزبد معتذراً « برداءة الطقس » ، هو الذى كان بالأمس يتشدق : « بأن فأراً واحداً لن ينجو ! . . »

ومع ذلك أعتقد أن للغز تفسيراً . وفى هذا التفسير ، السبب فى أننا مازلنا ، إلى اليوم ، نعيش ونلعب ، وأن انجلترا مازالت منيعة حصينة ، وأن المستقبل الذى أمامنا ، مازال لنا . . . أعتقد أن هتلر كان ينظر إلى طريقين فى وقت واحد . . وبذلك غفل عن رؤية ماكان ينبغى .

● لقد كان صعباً جداً على رجل أتخمه الفوز الرخيص ، رجل لم يلق أمامه إلا الضعف والوهن فى مغامراته السياسية ، رجل كان يتباهى بقوله : « إن من سوء حظى أن أعامل أصفاراً ! . . » . كان يصعب عليه ألا يزوغ بصره عن « دنكرك » ، ليبهر بالاستيلاء الرخيص على « باريس » ، وأن يغفل عن معجزة الجلاء ، لأنه مفتون بتسليم فرنسا . . .

عندى أن هذا هو ماحدث « لهتلر » . باريس كانت تشير إليه وتلوح له . . هو الرجل الذى مزّق بنود معاهدة « فرساى » بنداً بنداً ، واحتل أراضى « الراين » ، واستولى على النمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وسحق بولونيا ، وجعل ألمانيا أعظم منها فى أى وقت مضى ، قد أتيحت له الآن فرصة الذهاب إلى باريس ، وإتمام إخراج الرواية بإرغام المندوبين الفرنسيين ، فى نفس عربة القطار ، على بلع ذات الكلمات التى انتزعوها من حلوق المندوبين الألمان فى عام ١٩١٨ ! .

ياللفوز العظيم ! . .

● بعد أسابيع قلائل فقط ! . الدخول إلى المدينة فى نفس التاريخ المحدد فى برلين من قبل : ٢٥ يونيه ! . . ثم الحج ، فى تحية ساخرة ، إلى قبر « نابليون » ، فياله من مشهد رائع كفيل بأن يبهر الفنان المحروم فى شوارع « ڤينا » ! . .

لقد تخلى الحظ عن هتلر فى مايو ١٩٤٠ ، والصور التى نشرتها صحف بلاده ، عندما حمل إليه رسول فى مركز القيادة الألمانية ، طلب الفرنسيين الهدنة ،

تمثِّله يرقص مفتوناً من الفرح . . هذه الصور تمثل رجلا بهت لفكرة دخوله باريس فاتحاً ، فبهره النجاح . .

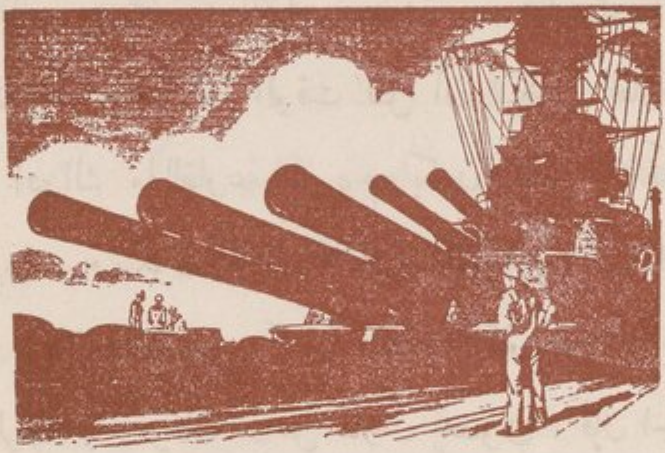
وفى اعتقادى أنه كان أَوْلى بهتلر يومئذ ألاّ تأخذه النشوة لفوزه ، وأن تظل عينه على طريق « دنكرك » لا طريق باريس . . فإنه عندى قد خسر الحرب فى مفرق هذين الطريقين .

● فمن المستحيل ، الاعتقاد بأنه كان لا يمكنه أن يهلك الجيش البريطانى ، بالنظر للمركز الموئس الذى كان فيه ذلك الجيش ، أو أن يحول دون إبحاره ، لو أنه سلط عليه كل قواه من البر ومن الجو . . . وكان يمكن الانتظار على فرنسا . . فقد كانت فرنسا قد أصبحت له ، على أى حال . إن خمسة عشر يوماً ، أو شهراً ، أو أكثر ، أو أقل ، لم يكن ليغير من الواقع شيئاً . . فقد كان عليه فقط أن يهز إليه الجذع فتتساقط فرنسا رطباً جنياً . .

أما لو أنه حطَّم الجيش البريطانى ، وأرغم القيادة البريطانية العليا على إرسال آخر طائراتها الاحتياطية المقاتلة عبر « المانش » ، وحطَّمها أيضاً ، لكان نصره نصراً عزيزاً ، لا مثيل له فى تاريخ العالم ، لأن قاذفات قنابله

كانت عندئذ ترهق أسطولنا وتضايقه بحيث ينفسح أمامها للغزو المجال . .

أكان ذلك فى الإمكان ؟ ! أجل . . كان يمكن ، ولكنه لم يقع . وقد نجونا على شىء أدق من الشعرة ، وأحَدَّ من السيف ! . .



٦

باريس : المدينة التى تساوى شعباً بأسره . . .
كيف عطلت بجمالها ودلالها غزو الجزيرة البريطانية ،
التى كانت مفتوحة الأبواب ، مباحة الجناب . . .

● لقد كنا بحاجة إلى الأسابيع ، والشهور ، لنعيد تكوين وتنظيم جيوشنا ، وتسليحها ، وصناعة مدافع ودبابات حديثة ، وطائرات جديدة . . فهل كان الأمل أمامنا يجد متسعاً من الوقت قبل أن تكون القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفَراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش . . ! !

كان ذلك يبدو كثيراً جداً ، أكثر من أن يحيط به الرجاء . . وكان الأمل مازال يحدونى ، فإن الجيش قد نجا ، وشهر يونيه يجرُّ ذيوله متباطئاً ، وهتلر مازال فى حاجة إلى بضعة أسابيع ، ليتمم انتصاراته فى فرنسا . وكان كل يوم يمضى ، هو يوماً مكسوباً . .

هذا شأن لندن ، فماذا كان شأن باريس ؟ !

إن باريس ـ كما قال يوماً بعضهم وهو يضع

إحصاءاته السياسية - : تساوى شعباً بأسره . وظنها هتلر تساوى ترك الجيش البريطانى ينجو من « دنكرك » ، وظنها موسولينى تساوى ، إذا سقطت ، دخوله الحرب .

وكلاهما كان مخطئاً ! . .

لقد كان يبدو للعيان ، منذ أوائل يونيه ١٩٤٠ ، سقوط باريس ، وتسليم فرنسا ، وكان القلب وحده هو الذى يرجو مايخالف الواقع ، فما زال ينكر . . أما العقل فقد كان عارفاً به . . فقد كان فى الهجوم الألمانى من القوة الغشوم ، وكان فى فرنسا من قلة الحيوية وضعف المقاومة ، ماجعل الأمر يقيناً . وكنت أعلم أننا سنُترك وحدنا لمحاربة الألمان ، وأعلم أننا نستطيع أن نكسب الحرب ، إذا دافعنا عن جزيرتنا وكسرنا الغزو ، فإذا تم لنا ذلك ، فإن « الكل باطل وقبض الريح . . »

بيد أن دخول موسولينى الحرب ، قد أدهشنى فلست - كما كان المستر تشمبرلن - حسن الظن بالفاشستية وهى التى نسخ منها هتلر جل طريقته .

ولكنى كنت أعتقد فى الدوتشى الدهاء ، فظننت أنه سيرى أن أحسن ورقة فى يده هى البقاء خارج الحرب ،

ثم بجيش وأسطول وسلاح جوى ، يلعب دوراً مهماً فى مؤتمر الصلح ، إذ يستطيع ، « كأمير للسلام » ، أن يزيد فى مساحة ممتلكاته . فإن بقاءه خارج الحرب لايجعله يخسر ، فى حين أن دخوله فيها محتمل الخسارة . .

وكان الاحتمال الأول فى مصلحته بالطبع أكثر ، ولو كانت لديه بعض الشكوك ، فقد بددها عمل الأسطول البريطانى ، عندما طارد وأمسك وحطَّم بارجة الجيب الألمانية « جراف تسبى » ، عند « مونتفديو » . . فمنذ تلك اللحظة ، كان على إيطاليا أن تدرك - وهى دولة محاطة بالبحر - سلطان الإنجليز فى البحر ، وإمكانهم خنقها إذا دخلت الحرب ضدنا .

ولكن الظاهر أن كلمة « باريس » قد فتنته ، كما زاغ بها بصر هتلر عن « دنكرك » ، فإن سقوطها الوشيك ، وتسليم فرنسا ، قد أضلا بصيرته أيضاً . .

وبدا دخول إيطاليا الحرب ، فى ذلك الوقت ، من الخطورة بمكان . وكان حملنا يثقل ظهرنا وزيادة . . وكنا على وشك أن نخسر الأسطول الفرنسى ، كما كان يحتمل ، وهاهو ذا الأسطول الإيطالى ضدنا . ومع ذلك

خيِّل لى إذ ذاك أنها نكبة أخرى ، لاتقدم ولا تؤخر .

وتذكرت ماقاله الفيلد مارشال فون بلومبرج ، وزير حربية ألمانيا الهتلرية ، ذات مرة لأحد أصدقائى : « إن الجانب الذى ستكون من نصيبه مساعدة إيطاليا سيخسر الحرب القادمة » ! . . . ووجدت عزاء فى تلك الكلمة الرنانة ، التى قالها قائلها ، عقب زيارته مباشرة لإيطاليا . .

أما غزو انجلترا فهو أعز أمانىِّ الألمان ، وكل ماعملوه وكسبوه يصبح عبثاً ، ولا قيمة له ، إذا لم تتحقق هذه الأمنية ، لأن العجز عن الغزو ، أو الغزو الفاشل ، هو على طول الأيام انكسار ، انكسار تام وانهيار . وليس هناك بين بين . وكانت الشواطىء آنئذ أمامهم مفتوحة ، والأجواء مكشوفة ، وجيوشنا مختلة النظام ، وكان طيارونا مرهقين ومحدودين ، والمجال أمام رجال الباراشوت فسيحاً ، ولكن الألمان لم يأتوا ! . . .

● كنا نتوقع كل ليلة ، ونحن ذاهبون إلى فراشنا ، أن نسمع فى الصباح ، وكل صباح عندما نستيقظ ، أن الغزو قد بدأ . .

ولقد كففت عن كتابة أى شىء . . من ذا الذى يستطيع أن يكتب قبل أن يعرف الجواب على السؤال العظيم ، الذى سيتمخض عنه المستقبل ؟ !

ولقد سألتنى فى أوائل سنة ١٩٤٠ إحدى الصحف أن أكتب مقالا أعدد فيه الأشياء التى تمكننا من كسب الحرب . . فاقترحت ، فيما اقترحت ، أن يزيد إنتاجنا الحربى أضعافاً عدة ، وقلت إن العاطلين لدينا من الكثرة بحيث يسدون الحاجة فى بلاد هى أحوج ماتكون إلى الأيدى العاملة فى صنع الذخائر ، وإن دبلوماسيتنا ليست فى الطريق القويم لإبعاد إيطاليا وروسيا عن الحرب ، وإن دعايتنا الموجهة إلى الألمان بالراديو تافهة ، وإننا لابد لنا من المبادرة إلى الدفاع عن سواحلنا ، وأن نسرع ما استطعنا إلى تنمية سلاحنا الجوى قبل كل شىء آخر . .

فرفضت الجريدة نشر هذا المقال باعتباره « ليس برنامجاً إنشائياً بما فيه الكفاية » . . فلما سألتها عن مثل لما تقترحه من إنشاء ، قالت : « أن نقذف بالقنابل منابع البترول الروسية فى باطوم » ! . .

ولما كنت معتقداً ، من قبل ومن بعد ، أن

سماحنا لروسيا بالدخول فى الحرب جنب هتلر ، هو الخطأ الوحيد الفاحش الذى لم نرتكبه ، فقد آثرت أن أبقى ، أنا وقلبى ، فى عزلتنا .

ومرت الأيام ، وشهر يوليه يتقدم ببطء فى السن . . ولم يقع الغزو . . وكان النور الوحيد فى الظلمات المحدقة بنا ، بطولة طيارينا من شباب السلاح الجوى الملكى البريطانى ، عند لقائهم الطيارين الألمان . .

وكنت فى بعض الأحيان ، أسافر متجولا على سواحل انجلترا ، فأرى ذلك الهدوء الذى تقشعر منه الأبدان ، فى تلك الأوقات الحرجة المثقلة بخطر مميت . . كنت تستطيع أن تسير أميالا طوالا دون أن ترى صارخاً ابن يومين . .

ولقد شهدت ، ذات يوم ، فى شرق انجلترا مسطحاً منبسطاً من الرمال الثابتة الناعمة يبلغ نحو ثمانية أميال . . وكان يمكن لسفينة حربية أن ترسو على مدى إلقاء حجر منه . . وكان المكان نموذجاً لنزول فرق من الجند سواء بالسفن أو من الغواصات ، أو المراكب الطائرة التى تقف على الساحل ، أو فى بحيرة بالداخل

لاتبعد أكثر من مائة ياردة .. وكان وراء ذلك المسطح الرملى طريق مستقيم ممهد ، هو قاعدة مُثْلى لنزول الطائرات حاملات الجنود . . وكان فى وسط هذا كله حانة للاستراحة ، وجراج يعد مخزونه من الزيت وَقوداً شهياً لطائرات الأعداء ! . .

● ثم لما ذهبت إلى ذلك المكان نفسه ، بعد بضعة أشهر ، لإلقاء محاضرات على الجنود الذين جاءوا . وجدته قد انقلب رأساً على عقب ، فأصبح يعج عجيجاً بالجند والسلاح ، وكل أسباب الدفاع من أسلاك ، وألغام ، ومدافع الهاون ، والمدافع الأوتوماتيكية ، ومدافع الساحل ، وما إلى ذلك . . ولكن فى أيام الصيف ، تلك التى كان الغزو فيها على الأبواب ، متوقعاً فى كل لحظة ، كان يندر أن يلقى الإنسان مخلوقاً حياً فى ذلك المكان ! . . كان يندر أن تجد رجلا معه بندقية ، أو حتى غلاماً معه خيزرانة . . واستمر ذلك ، الأسابيعَ والشهورَ ! . .

ولقد أطالت الصحف ، ومحطات الإذاعة ، فى وصف استعدادات الدفاع العظيمة على الساحل الشرقي للجزيرة ، ولم يكن هنا شيء من ذلك . وكنا على وشك

أن نكرر الغلطة القديمة ، التى جعلتنا نغلق بالرتاج ونحصن باب الواجهة تاركين الباب الخلفى مفتوحاً !!..

وكان الظاهر أن الألمان ، إذا جاءوا ، نزلوا فى إيرلندا أولاً ليسددوا ضربتهم من هناك.. ولقد كتبت رسائل حماسية لكل شخص ذى نفوذ تذكرته ، لألفت النظر إلى سد هذه الثغرة المخيفة ، واثقاً من أنها ليست إلا واحدة من ثغرات مفتوحة على طول شواطئنا الطويلة المهجورة..

وحينما كنت أتمشى على تلك الرمال الجرداء فى شهرى يونيه ويوليه ١٩٤٠ ، كان يلوح لى سطح البحر الذى لايتحرك ، كما لو كان حائط سجن. وليس رمز حرية الرجل الانجليزى وشعاره.. فلشد ماكانت بشاعة سطح البحر!.

● وكذلك مر «أغسطس» أيضاً ، متباطئاً ، والدفاع الساحلى يزداد كل يوم قوة. فلم تعد ترى تلك السواحل المنبسطة الفارغة ، الفاغرة الأفواه لاستقبال الغزاة ، ولا تلك الطرق الممهدة الصالحة لنزول الطائرات حاملة الجنود ، التى شغلتنى كثيراً وأقلقتنى فى الشهور الأولى من الصيف ، فقد غطيت بالحواجز والعقبات.. وكان الجو يزداد

ظلمة من كثرة طائراتنا التى راحت فى ازدياد تتقاضى من قاذفات قنابل جورنج عوائد للمرور أغلى وأفدح . .

فهل كان هناك أعجب من ذلك الانتظار من هتلر ؟ ! لقد كنا تحت رحمته ، وهو مع ذلك ينتظر ، ثم ينتظر ، ويتركنا نقوى وسائل دفاعنا ونعيد تسليح جيوشنا وتنظيمها ! فما الذى عاقه ؟ !

ثم جاء فى أوائل سبتمبر خطاب هتلر الذى أقسم فيه ، أن يمحو مدننا من سطح الأرض محواً ، وبدأت الغارات الجوية على لندن . .

إذن فالغزو قريب . . وهتلر آت بلا شك بعد أن أتم عدته . .

وعلى ذلك ذهبت إلى لندن لأرى طلائع الغزاة . .

● كانت الأسابيع الأولى للغارات الجوية باعثاً لى على البهجة إلى ماوراء الحد ! فقد شعرت بأن الغزو آت لاريب فيه ، فى أية لحظة ، وكنت قرير العين بأن الوقت اتسع لنا طوال الصيف للاستعداد له . وهذا كان فوق كل مؤمل .

أما الفِرَق التى عادت من « دنكرك » واهنة فى

خرق بالية ، فقد أعيد تنظيمها و تسليحها . وزادت الحياة فى السواحل وغصت بالجند ووسائل الدفاع . واشتد بأس السلاح الجوى عدداً وعدة . وجاءتنا من وراء البحار كميات عظيمة من الأسلحة والذخائر من كل نوع ، كما عملت مصانعنا ليل نهار .

وألهبت زعامة تشرشل الجديدة روح البلاد ، فبدت لأول مرة كأمة عابسة ، متجهمة عنيدة ، مصممة على الدفاع إلى النَّفَس الأخير . . .

وعملت زعامته المعجزات ، من يونيه ، مستندة إلى عوامل أربعة : الخليج الإنجليزى ، والسلاح الجوى ، والأسطول ، وجمود هتلر لتهافته على باريس . مما أتاح لنا بضعة أسابيع سددنا فيها ألعن الثغرات ، والآن ، فى سبتمبر ، هاهو ذا قد استعد للقيام بالغزو ، ففرصة القتال أمامنا طيبة . وعلى أسوأ الفروض ، فلن نقع فى غمضة عين كما وقعت فرنسا ، بل نكيل الصاع صاعين . . إن عدم المحاولة ، أو المحاولة الفاشلة بالنسبة لهتلر ، إن عاجلا وإن آجلا ، تُعَدُّ هزيمة تامة لاشك فيها ولا تأويل . ولا مندوحة عنها ولا عوض . .

وكل ألمانى يعلم هذا . . فلمَ لم يأت هتلر ؟ !

● واليوم ، كثير من الناس الواقفين على حقائق الأمور ، يعتقدون أن الغزو كان معداً فى الأيام الأولى من سبتمبر ١٩٤٠ ، عندما بدأت الغارات الجوية . . ثم إنه أجل للضرائب المرهقة التى تقاضاها طيارونا المقاتلون من الطيارين الألمان ، وأن الغزو فشل أو أجّل ، لأن أول شرط للنجاح ، وهو هدم خطوط دفاعنا الأولى - طيراننا المقاتل - لم يتم .

وكانت تلك القوة ، فى ذلك الوقت ، صغيرة جداً ، فلو أنه تحول إلينا عندئذ لسحقها سحقاً بعدده الفائق . لقد كنا نغلبه بالكيف ، وكان يغلبنا بالكم ، ولكنه فى سبتمبر ، عندما ضرب ، كانت الكمية عندنا قد زادت أيضاً كثيرا ، وأفسح لنا القدر صدره . .

ولو أننا كنا فى يونيه ١٩٤٠ قد تخلينا عن قوتنا الجوية الاحتياطية الصغيرة ، لتحارب فى أرض فرنسا ، لكان هتلر قد قضى عليها قضاء مبرما ، وفتح أمامه الطريق إلى انجلترا . . ووقعت الكارثة التى ليس لها فى بطون التاريخ من شبيه .

٧

مؤلف « هتلر يتكلم .. » يصف : الطائرات النازية ، فوق لندن ، بأنها كالوحوش المنطلقة من الظلمات . . .

ربما كان الكثيرون لايعرفون الدور الخطير الذى لعبه الدكتور « هرمان روشننج » . فى الكشف عن أسرار الهر هتلر ونياته بأدق التفاصيل ، حتى إن الناس ، فى أول الحرب ، فى أوربا ، سخروا من « مبالغته » و « فشره » . . فجاءت الأيام والحوادث محققة كل كلمة قالها وكل رأى أبداه . . . ولو أن الناس المسئولين حملوا ، على محمل الجد ، والخطر ، مانقله روشننج عن هتلر وخططه فى قلب نظام أوربا ، وغزو العالم بأسره ، من أول ماسمعوا به من هذا الرجل المسئول ، الذى كان زعيم الوطنية الاشتراكية فى حكومة « دانتزج » ، والمندوب السامى لعصبة الأمم فى المدينة الحرة ، إذن لما وقعت هذه الحرب ! . .

ولد « هرمان روشننج » فى ١٨٨٧ ، بمدينة « تورن »

البولونية التى كانت يومئذ بروسية، من أسرة عريقة من أصحاب الأملاك وضباط الجيش. فدرس كأسلافه فى المدرسة الحربية، ثم جامعتى «ميونخ، وبرلين». فجاءت ١٩١٤ وهو فى السابعة والعشرين، فحارب فى جميع الميادين كملازم فى فرقة بروسية. وجرح عام ١٩١٧ جرحاً خطراً. وقضى شهوراً طويلة فى مستشفى حربى وراء الصفوف. واضطروا أن يحولوه، بعد النقه، من الجيش العامل إلى ما يسمونه «المكتب الثانى بوزارة الحربية».. فلما انهارت ألمانيا، عاد إلى مزارعه وضياعه.

وإذا بمعاهدة «فرساى» قد حولت بعض حقوله إلى داخل حدود بولونيا الجديدة، وأصبحت عزبته الكبرى جزءاً من حكومة «دانتزج» الحرة، التى كانت السبب الظاهر للحرب المشئومة، وكان نجم هتلر قد بدأ يبزغ فى ١٩٣١، فسجل روشننج اسمه فى الحزب الوطنى الاشتراكى، وبعد عامين انتخب رئيساً لمجلس شيوخ «دانتزج»، أى الوزير الأول للحكومة الحرة، وإلى جانبه «فورستر» زعيم الحزب النازى فى «دانتزج» الذى وجه نداء الاستغاثة المزعومة إلى زعيمه هتلر فلبّاه

للحال ، واقتحم بولونيا لانقاذ « دانتزج » وردها إلى حظيرة الرايخ .

وكان روشننج فى تلك الأثنـــاء معذباً ، لما يراه من نضال بين الألمان والبولونيين ، معذباً بين تقاليده البروسية وضميره . . ودعاه هذا العذاب إلى أن يستقل القطار إلى برلين ليلتقى الفوهرر ويسأله العون وراحة البال ، ومن ثمة نشأت سلسلة الأحاديث التى أذاعها بعد ذلك الدكتور روشننج فى كتابه « هتلر يتكلم . . » . . . فهزت أوربا . .

● وكتـاب روشننج هذا هو فى شـكل مذكرات عن معركة لندن ، والمقاومة التى يبديهـا شعب العاصمة الانجليزية ، وفى خلال هذه الأفكار تأملات حاول بها كاتبها جلاء ألوان الغموض السياسى فى الوقت الحاضر . وهو يحب الليالى التى يقضيها فى أقبية لندن ومخابئها ، والنزهات على ظهور السفن بين الموانىء والأرصفة ، بما فى ذلك من أخطار تجعل للوجود قيمة وللنزهة معنى . . .

إننا فى طريقنا . . تجرفنا تيارات زمننا . . أم ترى أن هذا مجرد وهم منا ؟ . هل الأمان يسرع عنا

ويفوتنا ؟ . . فحيثما كنا ، فنحن مقيدون . على ظهر سفينتنا الوهمية ، على ألواح صلبة من خشب ، فى هواء فاسد ، لا نرى للنجوم شعاعاً . . . أغوار المحيط تحتنا ، وطنين النحل الوبيل ، وطير أبابيل فوقنا ؟ !

إننا فى مخابئنا فى هذه المدينة ، فى هذه المملكة ، كأننا بين جوانب هذه السفينة الخيالية ، ونحن فى رحلة تبعدنا عن كل ما كان ، بيتنا وعائلتنا ووطننا ، منفيين من الراحة والأمان ، مسافرين إلى أرض جديدة ، بعيدة ، مجهولة ، ربما كانت غير مضيافة . . فان مجتمع لندن ، مجتمع انجلترا ، هو سفينتنا ، فنحن عليها نجنح إلى ضرب جديد من الحياة ، إلى مملكة عصر جديد . . . الأمل حقيبتنا ، والثقة زادنا ، ونحن على أهبة واستعداد لمعاناة الرحلة الكئيبة . .

الأمل ، بلى ! . . إن الأمل يصحبنا ، لأنه منا . وكذلك الرؤى . . تسير معنا . . إننا نحلم بالزمن الآتى ، ونتأمل فيه ، ونراه على مقياس البطولة ، وربما كنا حالمين بمعجزة . ولعلنا يحدونا الأمل فى التمكن من أن نترك وراءنا ، مدى الدهر ، متاعب الحياة المرهقة ، ومشاغلها المنهكة . .

وربما كنا لانتبين غير الأخطار والآلام والأكدار التى خلفنا والتى حولنا ، لا العمل الشاق الذى أمامنا . .

فما هذا الذى نتركه ؟ وإلى أين نقصد ؟ هـذه هى أسئلة عصر الانتقال الحاضر ، طور المعارك ، وزمن الرحلات ، الذى يحملنا فيه تيار المصير وينقلنا من بيتنا ، وعاداتنا ، وأوطاننا . .

● لقد أطفأت النور ، ونظرت من نافذتى وراء حوش التنيس . . . سحب كثيفة من الدخان تتصاعد من النيران فى أحواض السفن وتصبغ الجو بضياء أحمر . . وأنوار الاستكشاف تتعارض فى السماء ثم تتعانق ، ثم تفترق ، ثم تختفى . . والنجوم المتلألئة فى الباراشوت العائم المتأجج تسبح فى الظلمة ثم تهوى الهوينا . .

ياالليلة العجيبة ! . . فوقنا تئز قاذفات القنابل أزيزاً ، وهى تدور كالوحوش المنطلقة من الظلمات . . ودوى الانفجارات بعيد . . . الآن قريب ، وصفير القنابل الساقطة قاب قوس منا ، وهزات الانفجار الشديد الدانى تزعزعنا . . فنزلت السلم لأكون مع الآخرين . . وهو دافع غريزى نحو الجماعة فى الطوارىء والملمات . . فمنذ بدأت

المدافع المضادة للطائرات تضيف عواءها إلى انفجارات القنابل ، صار النوم ضرباً من المحال .

وسقطت قنابل محرقة على سقفنا ، وقنبلة شديدة الانفجار فى ساحة التنيس .

وكنا قد أعددنا قبو المؤونة ليطيب مقاماً . . واتخذت لى من صندوق التليفون منضدة أكتب عليها ، دون أن أضايق بالنور أحداً . وكنا نرقد على ملاءات فرش ومراتب قطن ، بوسائد ومعاطف ، وكنت ترى بيننا الزوجين العجوزين ، ينامان بسلام متلاصقين ، كما كانا كل ليلة بلا شك ، فى السنين الطوال الخالية . . . وكان هناك زوجان آخران شابان ، ظاهرا السلام أيضاً ، وإن كان لا يخفى تأففهما . . وهناك رجل يطالع كتابه تحت معطفه ، وقد اتخذ من حقيبة خشبية وسادة . . وهناك عانس عجوز ، كان يبدو عليها أنها أصابت مكاناً سعيداً ، من اكتشافها ، فلا ينال أحد ولا شىء منها منالا ! . .

وكانت الأرض كتلة من الوسائد و « البياضات » و « المفارش » . وكان الجو لا يكاد يطاق . وكنت أرى ،

من منضدتى الصغيرة ، أصابع قدمى شابة تلعب ، بينا هى تضحك وتتلوى ! . . فلعل الزوجين الشابين كانا لايزالان فى شهر العسل . . وهو بثياب الجندية . . وربما كانا مجرد صاحبين . . فى نضرة الصبا ، ونعيم السعادة ، ومرح الحرية . . وكانت الفتاة تمزح وتثرثر بلا انقطاع ، غير مكترثة بهدير القنابل ، واهتزاز البنيان .

وانضم إلى عنبر منامنا هذا ، طفل عمره عام ، ذهبى الشعر ، سمين الوجنتين ، وكان الطفل لايزعجه كل هؤلاء الغرباء من حوله ، فيندس باطمئنان بين والديه ، وكانوا قد جاءوا من فندق مجاور ، أخلى من نزلائه لسقوط قنبلة عليه لم تنفجر ، لأنها تنفجر فى ساعة معينة . . وكان الصغير يستحلب زجاجة من اللبن بهدوء قبل أن ينام .

واكتظ قبو فندقنا بالناس . وكان بينهم ضباط فرنسيون ، ظاهر أنهم ، لتجربتهم الطويلة ، قد تعودوا أن يجدوا لأنفسهم الراحة فى ظروف الضيق والعناء .

وكانت الأرض تهتز من تحتنا ؛ كما لو كان هناك زلزال . . فانزعجت إحدى النساء وبدأت تنشج . . فقد سقطت قنبلة ثقيلة بجوارنا . . وحاول أحد الفرنسيين

تطمينها بقوله : « خلاص !..! C'est Fini »

ثم ساد السلام فجأة .

فان الوحش الجوى قد انقلب عائداً إلى الظلمات .

فى كل مكان ، كان الناس جميعاً يعيشون هكذا ، تحت الأرض ، فى هذه المدينة الواسعة . . . وهم يعيشون هكذا فى المدن الأخرى ، الكبيرة والصغيرة ، يؤلفون جماعات جديدة ، ألقت بها رياح كل البلدان ، ومن كل طبقات المجتمع . كانت الحواجز تسقط ، والأحكام المبتسرة تتلاشى . . لقد امتزجنا ، بعضنا بالبعض ، متخذين شكلا جديداً ، سادة وخدماً ، فى الكرب نفسه ، أصحاب أعمال ، وعمالا . . .

هاهى ذى ألوف المخابىء ، كأنها زوارق النجاة الصغيرة فى عباب هذا المحيط . لا تكاد تتسع لنزلائها . ومن حولها يدوى طنين القنابل ونباح المدافع . . . وبحارة هذه الزوارق قد عزلوا تماماً فى غمرات المحيط ، وحدهم ، إزاء المصير المحتوم الذى حاصرهم بقوة قاهرة تفوق التصور .

فهل هو الحظ المحض ، أو القدر ، الذى يقرر من ذا الذى ستصرعه تلك القوة ؟ !

لقد كان بعضنا يبحث عن السلوى فى لعب الورق ، أو شرب الخمر ، والبعض الآخر يغنى جماعات ، أو يتناقش فى عمله ، أو فى المستقبل . .

هاهى ذى المخابىء الفسيحة ، والكهوف الهائلة . . كل أشكال الناس وألوانهم قد جاءوا إليها . . ولكنهم لا يكونون طائفة واحدة . بل ينقسمون فى حلقات ، وجماعات . . هذه الجماعة اللاعبة . . وهذه الجماعة الواجمة . . هذه كتلة من العائلات مجتمعة . وهؤلاء الجيرة وعابرو السبيل قد اتصلوا وتفاهموا .

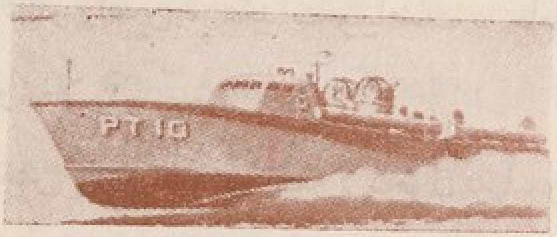
ها هى ذى محطات ما تحت الأرض . . ألوف الخلق قد استقرت بهم النوى على الأرصفة ، والممرات ، والدرجات ، والسلالم الميكانيكية ، مضطجعين ، أو جالسين القرفصاء ، أو راقدين ، بمخدات وبياضات ، حاملين زاداً لبطونهم وشغلاً لأيديهم .

البعض يزرع نفسه فى نقطة لا يتحول عنها ، والبعض يتنقلون من مكان إلى مكان . البعض يدافع بغيرة عن مكانه المعهود ضد كل دخيل . . والبعض يذهب من غار إلى غار ، كأنهم جنس جديد من البدو الرّحل . .

والكل فى طلب المخبأ الأشد أماناً ، والأوفر سلاماً ..

وهناك ، من فوق هذا ، لندن ، المدينة القديمة ، تكسر قطعة قطعة ، وتتحول خراباً يباباً . .

وليس عمل التخريب أمراً ميسوراً . إنه بطىء ، متقطع ، مضن . . وكانت منطقة العدم تزداد اتساعاً ، كل ليلة ، وتتراكم حجارة . . وما من أحد يدرى متى ينتهى هذا كله . . ولكن الذى يشعر به كل أحد هو أن عالماً بأسره ، عالم الأمس وعالم اليوم ، بكل مؤلفاته ، وعاداته ، وصفاته ... يغرق ، ويختنق ، وينتهى . . ولن نراه بعد . . إنه يذهب بلا رجعة . . أبد الدهر . .



٨

أنبياء ودعاة . . . . . .
نظام الديمقراطية البرلمانى ،
يصطدم بحقائق الحياة . . .

● إن اليهود قد ألقوا بالنبى « إرميا » إلى الحمأة والوحل ، لأنه نبأ بسقوط « أورشليم » ، قائلين فى تبرير ذلك : « لأن هذا الرجل لا يبشر بخير هذا الشعب بل بضره » . . فالويل لمن يتنبأ ! . . ولكن متى كان الإنذار بشر قادم مستطير أمراً عاماً شاملا ، فكيف يمكن أن يقع الشر ؟ !

إننى لست أشكو من أن تحذيراتى وإنذاراتى فى كتاب « هتلر يتكلم . . » لم يحملها الناس على أنها جد واقعى ، فربما كان مما لا يصدق أبداً ، أن ذلك الرجل الغريب هتلر الذى حُمل إلى القمة بسبب هياج الشعب الألمانى ، وكان ينظر إليه كفرد عادى ، قد رسم خطته فى أدق وأصغر تفاصيلها منذ ثمانى أو تسع سنوات مضت ، مما ينفذه الآن حرفاً بحرف . .

إن أحداً من الناس ما كان ليعزو إلى ذلك الرجل

كل هذا الوثوق بما يريد ، وهذه البحبوحة من التصور ..
وكان أول من أبى تصديق ذلك ، والاصغاء له معارضى هتلر أنفسهم ، وعدوا أقواله التى نقلتها كخيال أو هوس ، وزعموا أن التقارير عن خططه الموضوعة دعاية مأجورة ، أو غير مأجورة ، فى حين أننا نعرف الآن وندرك كيف أنه أعدها بكل دقة ، وبلا حذر ...

إنه لم يكن « عبد الملك الحبشى » ، الذى جرنى - كما جر النبى « إرميا » - من الحمأة التى ترديت فيها فى الشتاء الماضى عندما ظهر « هتلر يتكلم .. » ، ولكن الذى أنقذنى فعلا هو ظهور الحق المروع القاسى بتحقيق هتلر خططه فعلا . فان هجومه على السكنديناڤيا ، وغزوه هولندا ، وفِرَقه المتنكرة فى ثياب جند البلاد التى يغزوها ، وضروب الخب والخديعة ، وشراء الحكام الصوريين ، والطابور الخامس ، وانهيار ديمقراطية فرنسا العريقة ، قد تحققت كما عناها تماماً الهر هتلر وفسَّرها لى فى « اوبرسالزبورج » عام ١٩٣٢ .

فهل يستمر ويمضى فيما رسم ؟ هل يجىء دور بريطانيا العظمى ، والبلقان ، وروسيا (ظهر هذا الكتاب

قبل الهجوم على روسيا بشهر واحد) والشرق الأدنى ؟! ثم يجىء دور أفريقيا ، وأمريكا ، والشرق الأقصى ، كل فى وقته ، خطوة خطوة ؟! هل تسير ثورة هذا العالم إلى النهاية المريرة ، إلى الخراب التام للنظام القديم ؟ ! أو أنها ستوقف عند حدها ويكبح جماحها ؟! أحقاً لاتزال هناك قوة يمكنها أن تقف هذه الثورة ؟ ! أيمكن للديمقراطية أن تقفها وتردعها ؟ ! .

فمن الجلى تبين ما يريده هتلر فى الشرق الأدنى والأوسط . إن هذا هو مفتاح القضاء على الامبراطورية البريطانية ، ثم هو منطقة الزيت . . ومن ثمة جاءت محالفته مع إيطاليا التى يمكنه بها أن يشرف على العالم الإسلامى .

فإعادة السيادة التامة إلى كل الشعوب التى تحكمها بريطانيا وفرنسا ، ترن رنيناً شجياً جذاباً . وعلى ذلك وضع الشعوب العربية تحت لواء اتحاد إسلامى ، مع استقلال الهند التام .

● إن تسليم فرنسا هو شىء مخوف لايكاد يصدق ، كما لو كان طيف ميت . . لقد كنا ننتظر ، خلال الأسابيع

المحزنة التى تلت غزو هولندا ، هجوماً قوياً يثلج الصدر ، فلم يحدث . . لم يكن لفرنسا احتياطى للهجوم فى الساعة الحرجة . . لم تكن هناك حرارة تجمع القوى . . فهل هذه نهاية فرنسا كدولة عظمى ؟ هل هذه غاية تاريخها ؟.

إن هناك شيئاً هو حقيقة واقعة ، وأعنى به أن نظام الديمقراطية البرلمانى يزداد عمله صعوبة يوماً عن يوم ، والأمم التى لم تتعود وتألف تماماً العمل به ترى نفسها مضطرة إلى السقوط . . ولكن هل معنى هذا حتما أنه ليس أمامنا سبيل للنجاة من شكل جديد للحكم المطلق ، وأن الجماهير يمكن أن تكتفى بمجرد التأكيد لها بأن هذه هى الحرية التى تنشدها ؟ ! هل معنى هذا أن الحرية لم تعد مكفولة ، بل الأمن وحده ؟ !

هنا نرى الخطر الرئيسى الجاثم على صدر المستقبل . . . خطر انتشار الثورة ، وتعميم الحكم المطلق . . وما يتبع ذلك معلوم . لأنه مامن أمة فى العالم خالصة من جراثيم الثورة .

ثم . . هل يمكن أن تكون الحياة البرلمانية سلاحاً سياسياً خطيراً ، كالاستبداد بالرأى ، والتفرد بالحكم ؟

إنه بقدر ما تتسع رقعة الأزمة العالمية ، وتتكشف

مساوئها ، تنجلى ضرورة المهمة المعجلة القاضية بتقوية وظيفة البرلمان ، الذى ليس له عوض ، ولا مايستبدل به .

فى خلال التغيرات المحتملة فى النظم الخارجية والداخلية للمجتمع . يعد الدستور البرلمانى ، وسيبقى شكل الديمقراطية القوى السليم المشروع .

* * *

لقد اجتمعت بعد « ميونخ » مع فرنسيين عظيمين ، وتحدثنا عن الحرب المحتومة مع النازى ، وكانا كلاهما على اتفاق فى أن ذلك الميثاق كان لعبة مشئومة ، كان كالموسيق التى تتقدم الجنازة ، كان كحية رقطاء اختفت فى ركن من الغابة لتتحين الفرص ، فتنفث سمها ، وتلدغ عدوها . . .

● إن إغفال مقاييس « مأساة فرنسا » من جميع جوانبها ، هو بمثابة الغفلة عن إدراك حقيقة مصيرنا . . فلم تكن الدسائس ، ولا مجرد إفساد طبقة من الطبقات ، ولا ضربة أنزلها فريق وصولى طماع ، ولا مجرد شيوخ ضعاف العقول من الرجعيين . . . لم يكن هذا كله سبب تلك الغلطة المؤسية ، والفكرة الكارثة الخاطئة ، التى أدت إلى الاتفاق مع النازى . .

الحقيقة الصريحة هى أن جميع طبقات الشعب الفرنسى قد أضربت ورفضت أن تمضى فى القتال . . كانوا قد ضاقوا ذرعاً ، دفعة واحدة ، بتلك الحملات . . وكانوا قد آثروا رغد العيش ، وترف الحياة ، آملين على الأقل أن يبقوا كما هم ! .

أيعدُّ ذلك انسحاباً من التاريخ ، وعودة إلى الدرك الذى تنبأ به هتلر لفرنسا ، قبل انهيارها بعدة سنوات ؟ ! !

إن أمة تفقد إيمانها بالعظمة ، وتتشكك فى قيمة المؤثرات العميقة ، والتضحيات النبيلة ، وتستسلم لمتاع الحياة ، هى أمة حقَّت عليها كلمة البوار ، وكفَّت عن أن تكون قوة مدعمة فى أى جانب من صرح التاريخ . .

إن الانسحاب من المهام السياسية الكبرى ، وتركيز الأمر فى الدفاع عن ممتلكات البلاد ، مما اتخذته السياسة الفرنسية مذهباً منذ ميثاق « ميونخ » ، كان بداية الشوط المنطقى لقبول حالة ، تزعم فرنسا وتتخيل أنها تستطيع أن تعيشها ، محافظة على روحها ، وإن فقدت ملايين الفرنسيين فى مستعمراتها ، وإن احتل عدوها بلادها ! !

إن أمة هذه حالها من الخضوع والتسليم ، إنما

تقودها مشاغل أخرى غير المجد ، أو الحرية ، أو المساواة أو الوطن . . .

● ما أصعب أن يعيش المرء كمهاجر ، بيد أن المنفى ليس مجرداً من الشأن . . لقد قطعنا إليه المسافات ، فكسبنا المسافات ، وكسبنا الصلات والمودات . ولما خرجنا عن المألوف ، صححنا جوانب أحكامنا التى كانت قد نالت منها العادات . .

إن المهاجرين واللاجئين هم قوم فقراء جردوا من مكانتهم ووظيفتهم وثروتهم . . ولكنهم يزعمون أن لهم رسالة . . تتلخص فى أنهم ، فى المنفى ، طلائع جيش روحى يعيد تكوين العالم . .

لقد عدنا إلى لندن . . لا شىء فى الحياة يعادل أو يزن أكثر من تلك الأيام والأسابيع التى انهالت فيها القنابل . . لقد ألفنا هذه الحياة الجديدة ، بمدها وجزرها ، بخفقاتها وزفراتها ، بهجماتها العنيفة ، وحملاتها الضعيفة . .

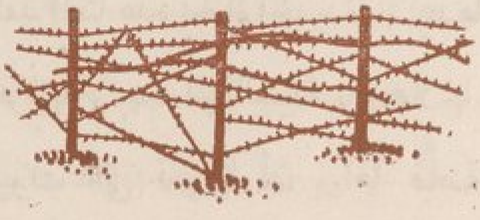
والبيوت التى تعودنا أن نراها فيَّاضة بالحياة قد غدت أطلالا . . كان هناك الحانوت الذى نشترى منه اللبن . . فأصبحت البنت التى تحضره لنا ، كل صباح ،

فى عداد الضحايا والشهداء . . وزوجة البقال فى المستشفى مصابة بجرح خطر . وأصبح دكان الحلاق أثراً بعد عين . . وقد قتل من أولئك الراهبات الفرنسيات الرقيقات أربع من ست . . أما الأخريان فقد كانتا فى واجب ليلى ، فنجتا من تجرع كأس المنون .

ومع ذلك فالحياة تسير . .

المدينة العظيمة تترنح حيوية . . الموظفون يواظبون على مكاتبهم ، والعمال على مصانعهم ، كجنود لا عداد لهم يحاربون فى الحملات الخفية ، لهذه الحرب الشقية .

الأطلال تختفى ، والخراب ينكشف ، والركام يزول ، والأنقاض ترفع ، والناس يعدون أعصابهم لتحمل تجاريب أخرى ، واستقبال محن غير كل مالقوا من محن . . .



٩

عميد الصحفيين الأمريكان في أوربا يحدث عن مسئولية هذه الحرب!!.
هتلر والقيادة العليا .. هتلر وشعبه ..

● « نكر بوكر » هو عميد الصحفيين الأمريكان فى أوربا . ظل نحو عشرين سنة يجوس خلال القارة ، لتقرير وقائعها للملايين العديدة من قراء الصحف الأمريكية. واشتهرت مقالاته وبحوثه بالجرأة والتجديد وسمو الروح والسخونة ، - ونعنى بالسخونة هنا أنها دائماً طازجة - فلا ينتظر حتى تفتر الحوادث أو تبرد . لذلك تجده فى حانة البيرة بمدينة « ميونخ » عند مهاجمتها والقبض على « هتلر » و « لوندورف » و « جورنج » بتهمة الخيانة ، وقتل ١٦ شخصاً من أنصار هتلر بالمدافع الرشاشة . وفى روسيا عند إبعاد « تروتسكى » ، وفى فينا عند مقتل « دلفوس » ، وفى الحبشة عند تدمير « ديسى » ، وفى الحرب الاسبانية الأهلية ، وفى الحرب اليابانية الصينية ، وفى تشيكوسلوفاكيا عندما سارت جحافل الألمان إلى بلاد السويديت . .

و « نكر بوكر » بشعره الأحمر البراق ، وشخصيته الحمراء اللامعة - كما يقول الكاتب العظيم « جون جنتر » -: مشهور فى القارات الأربع . . ولم تقع فى العالم كارثة إلا كان على رأسها ليصفها . فقد رأى ضرب ننكين بالقنابل فى الصين . . وشهد غزو النمسا ، ثم فضيحة ميونخ . . ثم غاب فى مجاهل أمريكا الجنوبية حتى وصل إلى « بيرو » ، ثم نادته أوربا ثانية ، فشهد بداءة الحرب العالمية الثانية فى لندن ، ثم صحب الجيوش الفرنسية فى ١٩٤٠ ، إلى أن انحلت وانهارت وراءها فرنسا ، ثم شهد معركة بريطانيا فى أشد أدوارها ، عندما كانت السماء تمطرها حمماً وناراً فى سبتمبر . . .

وليس بين جميع صحفيي العالم ، من تحدث إلى زعماء ورؤساء حكومات مثل « نكر بوكر » . . . وقد قابل هتلر مرات عديدة ، ونشبت بينهما الخصومة ، التى اشتهرت بحيث صارت جزءاً حاراً فى التاريخ السياسى . . فهو عدو لدود للنازى . . فليستمع له إذن القارىء الكريم فى كتابه الحديث « هل المستقبل لهتلر » الذى أحدث فى أمريكا دوياً هائلا ، لأن الغد إذا كان لهتلر ،

فمعناه أن يحكم النازى هذا العالم مدى ألف عام . . وإذا لم يكن له ، فمعناه سحق ألمانيا وتمزيقها إرباً إرباً . ولكى يكوس القراء لأنفسهم الحكم على مايقول . . . سنختار ما أمكن من الوقائع ، ونترك ما أمكن من الأهواء . .

● هل يمكن أن يكون هتلر مسئولا شخصياً ، أو مسئولا إلى حد كبير ، عن هذه الحرب ؟ أيمكن أن تعزى هذه الأهمية العظمى لمخلوق فرد ؟ !

هذا هو أحد الأسئلة التى يجيب عليها نكر بوكر بقوله :

— إنى أعزو هذه الأهمية الكبرى لذلك الفرد هتلر . فما كانت تقع لنا هذه الحرب فى شكلها الذى اتخذته ، وفى الزمان الذى نشبت فيه ، لولا هتلر ، بقدر ماكان لنابليون من شأن فى حروب لولاه ماوقعت . . .

ولقد كنت مراسلا فى ألمانيا منذ عام ١٩٢٣ ، وشاهدت الحقبة الخطيرة بين عامى ١٩٢٣ و١٩٣٣ عندما تولى هتلر الحكم ، وصوت ثلثا الناخبين الألمان بثبات فى جانب شكل من المبايعة والمشايعة ، سواء أكان

الديمقراطية الاشتراكية ، أم الاشتراكية الوطنية ، أم الشيوعيـة . وإنى لا أمارى إذا قلت : إن عبقرية أدولف هتلر وحدها ، هى التى ساقت البلاد بأسرها تحت لوائه ... فلولاه لذهبت الأصوات التى أعطيت للنازى كل مذهب وتسربت إلى عدة سبل ، ولكان من المحتمل أن المحافظين يكسبون المعركة فى نهاية الأمر فتصبح عندنا اليوم ألمانيا الجمهورية ، ولا تصبح هناك حرب ..!

فلا بد من التنويه هنا بأهمية شخصية هتلر .

ولقد كان من رأى أتباع ماركس ـ الاشتراكى الشيوعى ـ أن الأفراد لايحسب لهم حساب ، وأن التاريخ يصنع من قوى اقتصادية واجتماعية ، تصل بهم إلى غايتها آخرة المطاف ، سواء منهم من مات ، ومن عاش . . ولـكننى كلما عشت زدت اقتناعاً بخطأ هذا التفسير . . فالأفراد جوهر وليسوا عرضا . .

● وهل هتلر يعـدُّ أيضاً فى منطقة الحرب سيِّدَها وقائدها ؟ ! وهل هو يتولى فعلا معاركه كما كان يفعل نابليون ؟ !

والرد على ذلك عنـد نكر بوكر : « أن هتـلر

هو أقرب شيء إلى نابليون منذ نابليون . وإني لأذكر قبيل ابتداء الحرب تماما ، في أغسطس ١٩٣٩ ، أني سألت ضابطاً فرنسياً برتبة الكولونل من هيئة القيادة العامة ، إذا كانوا قد سمعوا بأن هتلر قد تولى قيادة الجيش الفعلية ، حتى يوجه بنفسه القتال عند نشوب الحرب.. فأجاب الكولونل الفرنسي بالإيجاب . وأن هيئة القيادة الفرنسية تعرف أن ذلك حق . ثم أدهشني بقوله : إنهم لايحبون ذلك . . !

لقد كنت أتوقع منه أن يفرك يديه سروراً ، ويهنيء فرنسا بحسن طالعها ، إذ يكون على رأس الجيش الألماني رجل هاو . . فلم أجد من ذلك شيئاً إطلاقاً . فقد فسر لي الكولونل الفرنسي ، أن هتلر قد أثبت تملكه أعجب حاسة ، وهي حاسة التوقيت ، أي حساب الزمن . ولعل هذه الموهبة هي أهم مايمكن أن يكون لقائد أعظم ـ فيلد مارشال ـ وأن هتلر قد يثبت ـ مع النصيحة الفنية لقواده ـ أنه خصم هائل عن يقين . .

● ولا أساس من الصحة للإشاعة القائلة بشذوذ في حياة هتلر الجنسية . فمرجعها ميله عن النساء .

غير أن الملاحظة الطويلة قد أقنعت شهود الحال ، من ألمان وأجانب ، بأن هتلر لاحياة جنسية له مطلقاً ، أو بالأحرى أنه قد تسامى بها « بزواجه الشعب الألمانى » . . .

فهذه هى على وجه الدقة العلاقة التى يؤمن بها هتلر فى ارتباطه بالألمان ، والظاهر أن الملايين منهم يشعرون بأنهم زوج له . . فتصور المشاعر التى تخالجه عندما يقف - كما كان يقف فى وقت السلم - على منصة ميدان « تمبلهوفر » فى برلين ، وأمامه مليون ألمانى ، وهذا أكبر حشد من الجماهير وقف يوماً ما أمام رجل واحد شخصياً . ويستحيل جمع مثل هذا الحشد فى بلد ديمقراطى ، لأنه تلزمه عندئذ اثنتا عشرة ساعة ، ليتجمع ويحتشد ، واثنتا عشرة ساعة ، ليتفرق بعد ذلك وينصرف . . !

ففى الليلة السابقة ، لأول مايو ، - وهو الذى سرقه النازى من الشيوعيين ، والاشتراكيين ، وجعلوه يوم عملهم - يقف أهالى برلين فى صف ، ويسيرون فى كتائب . . وكل هذا بنظام دقيق ، بقيادة معينة ،

بحيث عندما يظهر هتلر يكون مليون شخص ، ولا أقل من ذلك ، واقفين لسماعه . فإذا ما ظهر هتلر صدرت من مليون حلق صيحة : « هيل هتلر ! هيل !. هيل . . هيل » . . مرة ، ومرة ، ومرة . . . ! !

ثم يبدأ يخطب ، وفى كل فرصة محتملة ، يخرج مرة أخرى صياح من مليون صوت ألمانى : « هيل ! . هيل ! . هيل ! » . . فهل ترى فى هذا الضجيج حماقة ؟ ! كلا . . إلا إذا وجدنا حماقة فى « خطوة الأوزة » الألمانية المشهورة . . فهى تبدو سخيفة فى السينما فقط ، أما فى حقيقة الحياة ، فـ (خطوة الأوزة) رائعة التأثير ، فإن عشرة آلاف حذاء بمهماز فولاذى ، تضرب الأرض بكل القوة الكامنة فى عشرة آلاف ساق عضلية . . . فهم يزلزلون الأرض ، وعندما يصيح المليون ألمانى « هيل ! » ـ أى يحيا ! ـ يجعلون الجو يرتعش . . وإنى لأتحدى أى إنسان يسمع مثل هذا الهتاف ولا يرتجف ! . .

افرض أنك كنت محل هذه الحفاوة والترحيب . !

إن هتلر يحصل على مزاج الحياة من هـذا النوع من الهياج ! . .

والآن بالطبع ، لديه القارة الأوربية كلها تحت قدميـه ، وكل رجل يحب القوة والسلطان مثل هتلر ، فأمامه الآن مايشتهى . لذلك لا أظن أن هتلر سيتزوج يوماً ما ! .

● وترى عينى هتلر ، ولونهما ، وما فيهما من مغنطيسية ، أو سلبية ، محل اهتمام كبار الصحفيين ، وقد تنازعوا بشأنهما ، واختلفوا جميعاً فى الحكم على لونهما كأنهما قضية من قضايا التاريخ الكبرى ! ! !

فعنـدما وجه هذا السؤال نفسه إلى نـكر بوكر مؤلف هذا الـكتاب . قال رداً عليه :

ــ الظاهر أنهما عينـان تتوقفان على من ينظر إليهما ! . فقد لاحظت أن « فرانسيس هاكيت » فى كتابه الممتع « مايعنى أمريكا فى كتاب كفاحى » قد أورد ثلاثة أوصاف ، لعينى هتلر ، كلهـا تختلف عن بعضها البعض . . بينما نجد « أوتو توليشوس » يصفهما بانهما : « عينان صغيرتان ، رماديتان ، عسليتان ، تغلب عليهما لمحة الشعر والتمعن . . » . . . ونرى « وليام د . بايس » يقول فيهما : « عينانْ زرقاوان زرقة خفيفة ، بين حاجبين

لا لون لهما ، ووجنتين قاتمتين منتفختين » .. أما « جون ماكتشن رالى » ، فقد كتب عن عينى هتلر : « إن التعصب فى عينيه هو أثر أعظم شيء يسيطر على نفسه .. وفيهما صفته المغنطيسية التى يمكنها بسهولة أن تقنع أتباعه بأن يفعلوا أى شيء يريده العقل ، من وراء العينين .. » !.

أما الصحفية الأمريكية الشهيرة « دوروتى تومسون » فتقول فى كتاب « دكتاتوريون وديمقراطيون » : « إن العينين وحدهما تستحقان الذكر . فهما على رمادية قاتمة ، ولهما تألق خاص ، هو الذى يميز عادة ذوى العبقريات ، أو الكحوليين ، أو الهستيريين » . . . وفى الكتاب نفسه نسمع « لونتروب ستودارد » يقول : « إن عينيه على زرقة قاتمة جداً » . .

فما نتيجة هذا التخبط كله ، الذى أضاف إليه نكربوكر : « إن عينيه لهما زرقة صينية ، وليست لهما مغنطيسية إلا على كل ألمانى . أما لونهما فهو يختلف ويتنوع فى الأضواء المختلفة إلى درجة أنهما تتبدلان لوناً ، من الرمادى العسلى ، إلى الأزرق الفاتح ، إلى الرمادى القاتم ، إلى الأزرق القاتم .. إلى الأزرق الصينى .. » !!

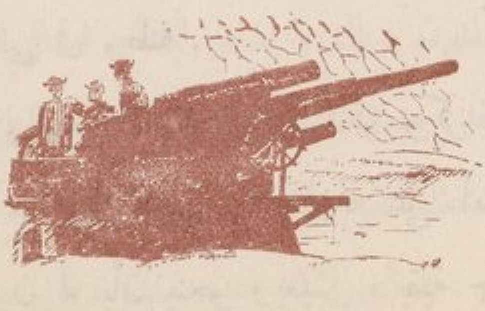
وهذه الاختلافات حملت المستر « هاكيت » ، أحد الواصفين ، على هذه الملاحظة : « إنه لمما يخيب الأمل فى الوصف الصحفى أن نقرأ هذه الأوصاف العديدة لعينى هتلر » ! . .

● فإذا جئنا إلى خلقه ، وسألنا : هل هتلر حقاً من الصلابة كما يدعى ؟ ! فقد جاء فى إحدى خطبه الحديثة : « إننى أصلب رجل حكم ألمانيا » . . فلنستمع لنكربوكر : إن الأشياء التى يقرها هتلر هى : أولا : التقدم نحو هدف واحد ، فى وقت واحد . فهو يؤثر التركيز ، ويكره التوزع . . وقد طبق ذلك فى الحرب الحاضرة . وهتلر يوافق على : « القسوة ، النظام ، الإعدام بسبب الخيانة ، الإيمان ، التعصب ، القوة ، الصلابة ، المثل الأعلى ، لذة المسئولية ، الاستقامة ، الطاعة ، الاندفاع ، المثابرة ، عدم الرأفة ، التضحية ، استبقاء الذات ، القناعة الذاتية ، الاستكفاء القومى ، الصمت وكتمان السر ، العدل الاجتماعى ، المسئولية الاجتماعية ، الإرهاب ، الإرادة القومية ، العزم ، والتصميم . . . »

وهتلر يمقت : « الجبن ، الشهوات ، أنصاف الإجراءات ، الشفقة ، الحرية ، المسالمة ، والمقاومة السلبية » .

ومن الصفات السابقة التى عزاها هتلر إلى نفسه فى كتابه « كفاحى » ، نجد فيه : « الوحشية ، والنظام ، والإيمان ، والتعصب ، والقوة ، والصلابة ، والمثل الأعلى ، والتلذذ بالمسئولية ، والاندفاع ، والثبات ، والقسوة ، والتضحية ، والكتمان ، والإرهاب » .

غير أنه ليست فيه الاستقامة ، أو المعنى الحقيقى للعدل الاجتماعى ، أو المسئولية الاجتماعية ، أو الصلابة . فهو قاس دون أن يكون صلباً . بحيث أعتقد أنه سيثبت يوماً ما أنه هاش . . أما الاستقامة أو الولاء فقد اشتهر بأنه يتخلى عن صديق العمر ، وإذا استلزم الأمر ، يقتله ، كما فعل فى « روهم » ، الذى ثبت استهتاره واندفاعه فى شهواته الشاذة ، دون ندامة . .



١٠

ماهى « الرايخ » الثالثة ؟ . . . .
ماذا يصيب « الرايخ » اذا قضى هتلر ؟
لماذا لم يحاول أحد الاعتداء على الفوهرر ؟!

● لماذا يسمى النازى دولتهم : « الرايخ الثالثة » ؟ والجواب التاريخى يقول : بأن الرايخ - أو الرايش - الأولى ، كانت : الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكانت الثانية هى : الدولة التى أسسها « بسمارك » .

أما الثالثة فهى : الدولة التى أسسها هتلر ، وهى عندهم أعظمها جميعاً . لأنهم يعدون هتلر - ومن ورائه فرق العاصفة - نبياً . . يقود بلاده تحت أعلام الرياح والهبوب ، والعواصف المزمجرة . . . إلى مصير مجهول لا يعرفه الشعب الألمانى ، ولا يمكن أن ينبىء به الفوهرر نفسه ، وهو نبي فى وطنه .

وقد وجه المتسائلون إلى نكر بوكر سؤالا : عما يفعلونه مع هتلر بعد ما يغلبونه على أمره . . . وهل يسمحون له بأن ينجو ويعيش ، بقية حياته ، فى

راحة وأمان، كما فعل القيصر «غليوم الثانى»؟!

فكان رده عليهم: أنه ذكرهم ـ بوصفة ـ أمريكية قديمة فى ولاية تكساس لطريقة طبخ الأرنب، وتبدأ هكذا:

«ابدأ أولا باصطياد الأرنب»!. فإنى لا أعرف ماذا يعمل مع هتلر.. فكثيرون من الناس يقولون إنه لن يؤخذ حياً.. وإنه سوف ينتحر. ولست أعتقد ذلك. فإن ما أخمنه، أن هتلر إما أن يفعل ما فعله هيس ويفر إلى انجلترا، أو يبحث عن الموت فى معركة، كما كان القيصر السابق يرجو أن يفعل.

فإنه إذا بقى حياً، وقومنا على ما هم عليه من عواطف لا دواء لها، فقد نعامله كما عامل الحلفاء نابليون عند ما أرسلوه إلى جزيرة «إلبا»، ووقفوا عليه دخلا سنوياً يقدر بمليونين من الفرنكات، أى نحو ٤٠٠,٠٠٠ ريال، أو ما يعادل مليون ريال، بسعر القطع الحالى!..

ولقد حدث أن جريدة «الدايلى مايل» اللندنية، وجهت استفتاء لقرائها، عما يرون عمله مع هتلر بعد الحرب.. فرأى أكبر عدد منهم، أى ٢٥ فى المائة،

أن يعرض فى أنحاء المملكة فى قفص !... وهى فكرة سبق اقتراحها للقيصر السابق ، باعتبارها أشد عقوبة يمكن للشعب أن يفرضها لإذلال عدوه ..

واقترح عشرون فى المائة ـ من القراء ـ أن يقتل شنقاً ، أو رمياً بالرصاص ، أو يضرب عنقه .. ورأى خمسة عشر فى المائة أن ينفى إلى ناحية قفرة محرقة مثل جزيرة الشيطان أو صحراء أفريقيا !.. وأراد خمسة عشر آخرون فى المائة أن تفرض عليه الوحدة ، فلا يُرى ولا يَرى .. وشاء عشرة فى المائة أن يعيش بقية حياته فى الظروف التى يعيش فيها الشعب الانجليزى الآن ، أى تحت القنابل ، وتقييد الطعام ، وما إلى ذلك .... واقترح خمسة فى المائة من قراء « الدايلى ميل » تسليمه إلى البولونيين أو اليهود ... كما رأى خمسة آخرون أن يعامل معاملة المجانين !..

ولم يكن بين الأجوبة ، أن تحسن معاملته ، كما أُحسنت معاملة نابليون .

وليس الأمر تافهاً ، وليست أجوبة الشعب الانجليزى بالقليلة الشأن .. لأنها تلقى ضوءاً على طبع هذا الشعب ،

وتأثره بما أصابه من ويلات ، بسبب قاذفات القنابل النازية .

وكان أهم اقتراح سمعته صادراً من الصديق « إدجار مورر » ، الطويل التجارب فى ألمانيا . فقد اقترح بعد هزيمة هتلر أن يوضع فى قفص ويرسل فى أنحاء ألمانيا ليعبر للألمان عن مدى خطئه ! !

إذ علينا أن نتصور مدى تغير تاريخ ألمانيا والعالم إذا كان هتلر بين ضحايا المدافع الرشاشة التى أطلقت نيرانها على ثوار النازى فى مستهل ثورتهم ، صباح ١٠ نوفمبر ١٩٢٣ ، فى ساحة الأوديون بمدينة ميونخ .

وقبل هذه الحرب لم يكن ثمة أكثر من أهل العواطف فى انجلترا ، أما الآن فإنك تبحث طويلا حتى تجد منهم أحداً ...

وقد حدث خلال إحدى غارات لندن الجوية ، أن سألت سيدة انجليزية عجوزاً ، هى من أرق المخلوقات التى عرفتها ، عما يمكن أن تفعله إذا حدث أنها كانت تقود سيارة وظهر أمامها هتلر فجأة . . فهل تتحول عنه وتنقذه ، أو أنها تستمر فى القيادة وتصيبه ؟ ! فقالت بحزم : « كنت أضغط على البنزين وأسير قدماً من فوقه » ! !

● إن هتلر إذا قضى نحبه ، فإن المجهود الألمانى الحربى ينقص النصف ، ويكون ذلك كفيلا بأن تخسر ألمانيا الحرب . فإن هتلر لايمكن أن يحل محله أحد ، فهو فذ ، وإذا قتل ، أو مات أو ترك المجال بأى حال ، فإن ألمانيا لاتنهار ، ولكنها تصبح مثل سيارة تجرى بأقصى سرعتها ، فينفد منها البنزين فجأة ، فيستمر مسيرها بقوة الاندفاع مسافة معينة ، ثم تنتهى بالوقوف . .

ويتبع هذا السؤال ، سؤال آخر ، هو : لماذا لم يقتل أحد من الناس هتلر ؟ ! وكثيراً ماوجه إلىّ هذا السؤال خلال محاضراتى فى جميع أنحاء أمريكا . . بل إن ربع الأسئلة التى توجه فى جميع الشؤون ، هو السؤال عن مقتل هتلر . وكثيرون صاروا يوجهونه منذ ظفر هتلر بالحلفاء فى « ميونخ » فى سبتمبر ١٩٣٨ ، وهو مايدل على الاتجاه الأمريكى (كان ذلك قبل دخول أمريكا الحرب) . . وكان السؤال يوضع غالباً هكذا : « لماذا لم يحاول يهودى ، أو بريطانى ، أو فرنسى ، قتل هتلر ؟ . . »

وإن مما يحير العقل ، أنه حتى سبتمبر سنة ١٩٣٩

كان يمكن لأى شاب ، سواء أكان يهودياً أم وثنياً ، بريطانياً أم فرنسياً ، أو من رعايا أية دولة من الثلاث عشرة أمة ، التى غزاها هتلر . . أقول : إن أى رجل شجاع ذكى ، كان يمكن أن يقتل هتلر خلال شهرين اثنين من تصميمه على ذلك وكل ماكان يلزمه هو شىء واحد أساسى : أن يكون مستعداً لبذل حياته . . . أما الآن ، فقد صارت هذه الحياة - التى عزّ من يخطفها - تكلف ملايين الشبان حياتهم . . .

أو لم يكن هتلر محروساً حراسة قوية بحيث لاسبيل إلى قتله ؟ !

كلا مطلقاً . أما الآن فشىء آخر ، فهو منذ إعلان الحرب ، يحرس جيداً بحيث يستحيل الوصول إليه . أما قبل الحرب فكان من السهل قتله . بل لعله كان من الهيّن على رجل جرىء أن يقتله دون أن يقبض عليه . .

خذ مثلا : مؤتمر حزب النازى فى « نورمبرج » حيث يجتمع مئات الألوف من الأغراب فى المدينة . فالجستابو - البوليس السياسى - لايستطيع بكل قواه

أن يفرزهم جميعاً . فيمكن لأجنبي يتكلم الألمانية ، وله شكل الألمان أن يحصل على غرفة فى الفندق المقابل للشارع الرئيسى الذى تمر فيه المواكب . وفى خلال المؤتمر يظهر هتلر ، على الأقل ، فى موكب كل يوم ، عبر هذا الشارع . ويركب دائماً سيارة « مرسيدس » سوداء يقف فى مقدمتها بعد سائقه ، ويمد يده اليمنى بالتحية النازية . . ووراءه عادة أربعة من رجاله ، وعلى الجانبين اثنان آخران ، ومن الخلف سيارة أخرى مثلها تماما ، فيها ستة أو ثمانية ضباط أيديهم على مسدساتهم ، وهم من أشهر الرماة . . فهل تزعم أن ذلك كله خفارة جيدة ؟ ! كلا ، إطلاقاً . . . فإن ازدحام « نورمبرج » من الشدة بحيث يعترض سبيل السيارات ، أو يؤخر مسيرها بحيث يمر هتلر تحت نافذتك كما لو كان سائراً على قدميه . .

فلو ألقى القاتل قنبلة من نافذة الفندق على سيارة هتلر لما أخطأه ، بل إنه لو استعمل بندقية رشاشة لكان مصرعه ، مائة فى المائة ، أمراً محتوماً . فإنه يكون على نحو ثلاثين ياردة ، وقبل أن يتحرك من حوله من حراس ، تكون قد نفذت فيه عشرون طلقة ! .

ويكون بوسع القاتل فى وسط الهرج والمرج ، أن يقفز على الأسطح المجاورة ، إذا كان قد عنى بوضع خطته وحبكها من قبل . .

وكنت عندئذ لا أشك فى أن خمس عشرة حكومة تقلد قاتل هتلر الأوسمة وتغدق عليه النياشين ! . .



١١

روسيا : بلاد الأمواج والأميال التي لا قيمة لها . .
الشيوعية لم تتأثر بالحضارة الغربية . . . .
هل يعرض هتلر على ستالين الصلح . . . ؟ . . .

كان من رأى « نكربوكر » قبل إعلان الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ، أن هذا الإعلان هو خير ما تساعد به « روسيا » ، لأنه فضلا عن إرسال كل ما يمكنهم الاستغناء عنه ، من الطائرات ونحوها ، يعدُّ هذا الإعلان هادماً بطريقة المفاجأة التي اتخذها هتلر ، والتي جعلت العالم ينتظر متسائلا : أين تراه يوجه ضربته التالية ؟ . . فإن القوات الانجليزية ، الأمريكية ، الروسية ، ستضرب هي الضربة التالية ، بحيث يضطر هتلر إلى الاحتفاظ بعدد كبير من الفرق في كل نقطة يمكن أن تهاجمها قواتنا . .

ولقد أدهشت بالطبع مقاومة الروس للألمان كل إنسان . . . وتفسيرها عند نكر بوكر أن هناك أسباباً عدة لها . فقد توقع كل خبير تقريباً أن الروس سيسقطون بعد أسابيع قليلة من هجوم هتلر . والصحف

« ولتر دورانتى » كان الوحيد الذى قال بأن الجيش الأحمر سيقاوم أطول مما يتوقع العالم . .

● والسبب الأول لمقاومة الروس ، هو أن هذه هى أول مرة يحتك فيها هتلر ببلاد فيها « أرواح لاقيمة لها وأميال لاقيمة لها » . . فان سكانها البالغين ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة يعيشون على خبزهم الأسود وكرنبهم « المحشى » ويصنعون ذخائر الحرب وأسلحتها المتينة . وهم نحو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ جندى بين جيش عامل واحتياطى ، فيمكنهم بذلك أن يفقدوا من الرجال بقدر الجيش الألمانى كله ، ويبقى لهم بعد ذلك جيش كبير بعدد الجيش الفرنسى السابق . ففى حربهم ضد الألمان ، يمكنهم أن يخسروا واحداً مقابل اثنين ، ويبقى لهم التفوق العددى . وقيادتهم العليا تعرف ذلك وتسرف فى الاستهتار بالأرواح وتستفيد أحياناً من هذا الإسراف . والميزة نفسها محفوظة النسبة فيما يتعلق بالأرض . فيمكنهم أن يتقهقروا مدى مساحات تعادل اتساع ممالك أوربية عديدة ، ولا يزال أمامهم مجال للعيش ، كما يفعل الصينيون ! . .

والسبب الثانى لمقاومة الروس ، هو أن هذه هى

أول مرة يهاجم فيها هتلر ذرية لم يمسسها التأثير الإنسانى للمسيحية ، محصنة ضد المذهب السلمى ، لم تستسلم لنعومة الحضارة الغربية ، إنها أول مرة يهاجم فيها هتلر جيشاً قد تعلم أن الحياة كلها نضال ، وأن الحرب من أجل الاتحاد السوفيتى ، هى أنبل عمل يمكن لرجل أو امرأة أن يعمله ، وهى أول مرة لقى فيها النازى تعصباً أشد وأحد من تعصبهم . فالبلشفيك هم الذين ابتكروا التعصب المطلق ، والنازيون لم يزيدوا على أن أخذوه عنهم !

وكانت هذه أول مرة اصطدم فيها الألمان بشعب أشد توحشاً منهم . وقد سبق البلشفيك رجال النازى فى قولهم : « ان الغاية تبرر الواسطة » ، وقد تفوق الروس الشرقيون على الألمان الغربيين ، وبذوهم فى القسوة .

ولم يعرف الألمان الهتلرية إلا منذ عام ١٩٣٣ فقط ، وكانت علاقاتهم عادية بالعالم الخارجى حتى ذلك التاريخ .. فى حين أن الروس لم يعرفوا شيئاً غير البلشفية منذ ١٩١٨ ، ومن ذلك الحين وهم مغلقون دون العالم الخارجى كما لو كانوا فى قمقم مختوم . . .

● وكان من مزايا الروس التى لا يستهان بها : حبهم

التجديد ، وشغفهم بتجربة أشياء طريفة ، (وهم الذين ابتكروا فرق الباراشوت) ، واستعدادهم لنبذ الطرق التقليدية ، وميلهم إلى قيادة الشباب . . وكان الجيش الأحمر هو الجيش الوحيد - فيما يظهر - الذى تعلم من دروس حملة الألمان فى بولونيا ، التى كانت مفتوحة ليتلقنها أيضاً الفرنسيون والانجليز والهولنديون والبلجيكيون وكل دولة أوربية أخرى ، ولكنهم قد تجاهلوها جميعاً . . .

وقام ستالين بتصفية وتنقية الجيش الأحمر ، بإعدامه أو إخراجه نحو ربع ضباطه الكبار ، فجرى الاعتقاد يومئذ بأن ذلك قد أضر ضرراً لا سبيل إلى تلافيه ، ولكنه فى الواقع قد نقى الجيش من بعض عناصر الطابور الخامس ، وحطم الجنرالات العجائز جميعاً تقريباً ، وفتح الطريق أمام الرجال الذين هم دون سن الخمسين . . و « تيموشنكو » و « فورشيلوف » و « بدنى » من قبيل الاستثناء . . فهذا هو عصر الشباب .

● ومن رأى نكر بوكر أن أمريكا سواء أيدت أدبياً نظام ستالين أم لم تؤيده ، فالأمريكان مدينون ديناً عظيما للشعب الروسى ، وعليهم أن يحترموه ويجلوه . فإذا

كان حقاً ما قيل من أن كل شعب ينال الحكومة التى يستحقها ، فهذا لا ينطبق على الشعب الروسى . فهو لم تكن له قط الحكومة الجديرة به ، فالروس اليوم يظهرون فى ميدان القتال من قوة الروح والجلد ما يجعل الناس مدينين لهم إلى الأبد . وكيفما كان شكل الحكومة الروسية ، فالجندى الروسى يبذل حياته لهزيمة الألمان ، وكل تضحية لحياة روسية ، معناها احتمال إنقاذ حياة أمريكية . .

فنحن مدينون للشعب الروسى بصداقتنا وبكل معونتنا ، ولا يمكن لمعونتنا أن تصلهم إلا على يد نظامهم وحكومتهم . . .

فاذا ما سئلنا : ألسنا نخاطر بمعونة الروس ؟ ! قلنا : أجل . . فلا مندوحة لنا عن ركوب هذا الخطر . فقد مضى وانقضى ، من زمان ، الأوان الذى نستطيع أن نحمى فيه أنفسنا دون تعريضها للمخاطر . ونحن اليوم نجازف بمعاونة الروس ، ولكننا نجازف أكثر إذا قصرنا فى هذه المعونة . إذا لم نؤيد روسيا جازفنا بكسب هتلر مصادر روسيا . وإذا نحن أيدناها جازفنا بشيئين : الأول : أننا بعدما نكون قد أرسلنا المؤن والذخائر

والطائرات والنفط والمدافع إلى روسيا ، قد يسلم ستالين فتقع هذه الأدوات الحربية فى أيدى الألمان . . والمخاطرة الثانية : هى أنه بفضل مساعدتنا لا ينتصر الجيش الأحمر على ألمانيا فقط بوقفها ، بل يغزو ألمانيا ويحتلها . وإن كان الفرض الأخير ما زال مستبعداً ، لأن الجيش الأحمر لا يملك قوة الهجوم اللازمة لذلك . . ما لم نفرض تماسكه مدى عام فى الجبهة الغربية ، حتى يجىء الوقت الذى تتضاعف فيه وارداته من ذخائر بريطانيا والولايات المتحدة ، ويتمكن من السيطرة على الجو ، ويتفوق على الطيران الألمانى . . فعندئذ يمكن احتمال انهيار ألمانيا من الداخل ، وانسحاب الألمان من الشرق ، وبدء هجوم الجيش الأحمر . .

● وكنا نخشى ، لحظة من دهرنا ، أن يصالح هتلر ستالين ، ولكن الروس قد برهنوا بتخريب خزانهم العظيم ، فى دنيبر وتبروفسك على أن ذلك لن يكون .

فهذا الخزان كان عند الشعب السوفييتى بمنزلة المعبود . وتخريبه يدل على إرادة المقاومة التى تفوق كل تصور منا . . فإنى أعرف قيمة هذا الخزان ومنزلته عند البلشفيك ، وقد زرته فى سنة ۱۹۳۰ عندما بنى تحت

إشراف المهندس الأمريكى «هيوز كوبر» . فكان أعظم وأروع وأشهر مالديهم من مشروعات الخمس السنوات ..

وكان هو المصدر الرئيسى للقوة الكهربائية المائية لأوكرانيا ، أغنى أقاليم روسيا زراعة وصناعة ..

وكان الأمر الذى صدر من ستالين بهدمه ، بمنزلة أمر الرئيس روزفلت عندنا بهدم قناة بناما .. فإذا فرضنا أن جيوشنا التى تدافع عن القناة قد اكتسحتها أمامها جيوش يابانية مجتاحة إلى حد يصبح معه من البديهى استيلاؤهم على القناة إذا لم نخربها .. فإن تدميرنا إياها يمكن عندئذ مقارنته بما فعله الروس بتدمير خزان الدنيبر ..

***

● ترى .. فى أى ظروف يمكن أن يعرض هتلر صلحاً على ستالين ؟!

إنه سيعرضه فى الوقت الذى يعتقد فيه أنه هزم الجيش الأحمر هزيمة كافية لإرغام ستالين على قبول صلح يقضى بتسريح الجيش الأحمر إلى درجة تكفى لضمان عدم استخدامه فى هجوم مفاجىء على الجيش الألمانى بعد تحويل التفاته نحو الغرب . ومن المحتمل أن

يكون لهتلر أهداف هائلة أخرى عندما هاجم أول الأمر روسيا . . غير أن الجيش الأحمر قد حمله فيما يظهر على القناعة مؤقتاً بما هو دون ذلك . .

وإذا جئنا إلى ما يحدثه مثل هذا الصلح المشترك ، إذا وقع بين ألمانيا وروسيا ، من أثر فى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، قلنا إنه يكون كارثة أشد وأنكى من توقيع الميثاق السوفييتى الألمانى فى أغسطس سنة ١٩٣٩ ، وتفسير ذلك أن هتلر يتمكن عندئذ من الحصول على مالم يحصل عليه من روسيا بميثاق سنة ١٩٣٩ - فإنه يصبح فى مأمن تام من التخوم الشرقية فيكتفى بجزء بسيط من الفرق التى كانت مرابطة هناك منذ سنة ١٩٣٩ إلى حين وقوع الحرب بينهما .

ثم إنه يكون قد حصل على ضمانات بالاستيلاء على الزيت والحبوب و[illegible]رهما من المنتجات التى يحتاج إليها .

وتكون ضماناته هى نزع سلاح الجيش الأحمر إلى حد يمكن الألمان من اقتحام البلاد وإملاء إرادتهم وتنفيذ مطالبهم . ويحصل هتلر كذلك على حق سير جنوده خلال أوكرانيا ، أو الإبحار فى البحر الأسود ،

ومن القوقاز يتجه إلى السويس ، وربما إلى الهند . .
زد على هذا أن عزل روسيا حربياً يخلص اليابان من عبء ثقيل ، ويزيد أمامها فرصة الاتجاه إلى الجنوب فى منطقة مصالحنا الحيوية . . . ومثل هذا الصلح ، إذا تم ، يمكن هتلر من المقاومة سنين عديدة أطول مما لو كان عليه أن يحارب ، حتى يتم له غزو روسيا التام ، ضد حدود لا نهاية لها ، وأمة لا عداد لها ، ومتاعب لا آخر لها . .

● أما إذا سألتنى لماذا هجم هتلر على روسيا بدلا من أن يعرض مطالبه على ستالين ، فإنى أقول لك : لعل السبب هو نابليون ! ! وهذه نظرية خاصة بى . . فإن تهجم هتلر على روسيا ، قد أدهشنى باعتبار أن غروره قد قاده إلى الرغبة فى إملاء إرادته بالقوة على ستالين ، وهو الخصم الوحيد الباقى أمامه فى القارة الأوربية ، وبذلك يعمل الشىء الذى فشل فيه نابليون وهو غزو روسيا ، فان هتلر من المعجبين بنابليون ، وعندما زار باريس لأول مرة - بعد فتحها - قضى نصف ساعة وحده أمام قبر نابليون ، ثم أمر بنقل رفات « ابن نابليون » من « فينا » ليعاد دفنه بجنب أبيه . . وهتلر لا يجمع تذكارات

نابليونية مختلفة كما يفعل موسوليني ، ولكن هتلر يجمع نفس الممالك التي جمعها نابليون أو حاول جمعها . . فهو لا يسيطر على ذات الأرض فقط ، ولكنه ينافس نابليون ويقتدى به . .

وعذر هتلر فى مهاجمة روسيا دون عذر نابليون الذى كان يريد إرغام « الاسكندر » على الاشتراك فى حصار انجلترا ، وكان يغار من الاسكندر لأنه خصمه الوحيد الذى كان باقياً فى القارة الأوربية ، وكنت ممن يعتقدون أن هتلر كان يستطيع الحصول على أى شىء يرغبه من ستالين ابتداء من تسليم كل المواد اللازمة له ، حتى ولو جرد منها روسيا ، وكذلك الإذن بمرور جيوشه خلال روسيا ، بل وربما أيضاً تسريح الجيش الأحمر . . .

ومن المحتمل أن الروس كانوا لا يهاجمون الألمان إلا إذا وثقوا من خسارتهم الحرب نهائياً فى الغرب ، فيضربون ضربتهم القاضية ، كما فعل الإيطاليون تماماً مع فرنسا ، فهم من خشيتهم أخطار المجازفة انتظروا حتى أصبح تدخلهم لا يقدم ولا يؤخر . . فكان الفرنسيون

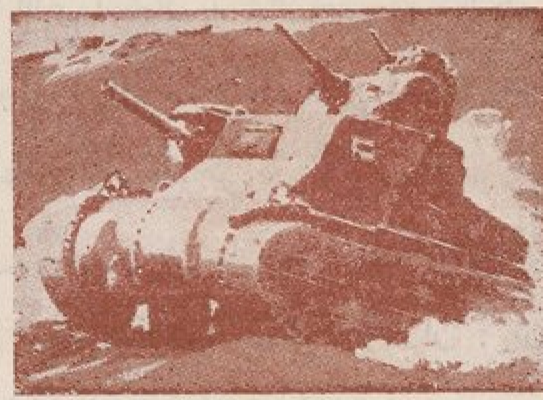
قد غلبوا على أمرهم فعلا . فلعل ستالين كان عندئذ ينتظر حتى يرى الجيش الألمانى صريعاً ، فيتحرك . . .

وعندى أنه ماكان ليهاجمه قبل أن يفقد قوته الجوية كلها ويبدأ انهياره . فاذا كانت هذه الفروض صحيحة فلم يكن إذن على هتلر من الروس خطر ، وكانت المواد والمؤن التى ينشدها كفيلة بأن تصله فى كميات وفيرة فى السلم أعظم منها فى الحرب ، دون أن يرفع يده بالسلاح . .

● وبقيت مسالة احتار الناس فيها ، وهى سر مقاومة الجيش الروسى ، فإن العالم كان يظنه دون ذلك قوة . وهتلر نفسه قد صرح لأول مرة فى حياته بأنه « لم تكن لديه فكرة » عن قوة الجيش الأحمر . ولم يكن يُسمح لأى إنسان أن يرى من هذا الجيش إلا لمحة . ولم يسمح لصحفى قط بأن يضع قدمه فى ثكنة عسكرية حمراء . وكانت المناورات تجرى فى سر وصون . .

وهـذا السر يفسر المفاجأة التى نالت من الناس عند نشوب الحرب ، إذ ثبت أن الاقتصاد السوفيتى كان اقتصاداً ذا غرض واحد ، وقصد واحد ، وهو : الحرب . وأدرك كل إنسان أن كل فرد فى الاتحاد السوفييتى يعمل

ليسد حاجة الأمة اقتصادياً ، وجيشها ميرةً وذخيرةً . .
ولم يخطر قبل اليوم لأشد الخبراء فطنة وبعد نظر ، أن
أمة من مائتى مليون نسمة قد نظمت اقتصادها وأقامت
صرحه الهائل ، لا لشيء آخر ، غير الحرب ، والقتال ،
والنضال . . . !



١٢ آخر ركاب السفين يصف فوضى الدعاية والرقابة .. جنود بغير قواد ، وقواد بغير جنود ! .... عندما يطغى الجوع والحرمانه ....

● « أندريه موريز » يصف « صيف ١٩٤٠ » ، فى كتاب شائق حزين ، نشره فى أمريكا . وهو الصحفى الأديب الذى استعان به جان جيرودو ـ الكاتب الشهير ـ عندما تولى وزارة الدعاية ، قبيل إعلان الحربُ بأيام . فهو قد عاش أيام الفوضى ، والألم ، والذعر ، والانهيار .. وكان آخر رجل على آخر سفينة ، ورأى مواكب الفزعين ، تجرى أمام جحافل الألمان . فعرف كيف يصور الكارثة التى ليس لها فى التاريخ من شبيه .. فهذه الحرب قد جاءت بفنون مروعة كأنها مستمدة من وحى الشيطان ، فسقطت فيها الممالك كأنها بيوت من الورق ، واندكت فيها البلدان ، كما لو كانت بيوتا من الرمل بناها الأطفال على ساحل البحر ، ليلهوا ويعبثوا ...

وميزة أخرى لهذا الكتاب هى أنه عرض للهدنة

ومابعدها ، بالروح التى حملته على اقتباس كلمة « بول فالرى » فى إهدائه كتابه : « إلى الأشخاص الذين لاينتسبون إلى أحزاب » . .

● ليست لى اتصالات سياسية ، ولا ماأريد أن أشفيه من حقد أو غليل ، وليست لدىّ مرافعة ألقيها . . لأننى مجرد شاهد عيان ، دعى ليدلى بشهادته أمام التاريخ . . فلأقدم إذن أوراق تحقيق شخصيتى لأبرز بها حقى فى الشهادة.

فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ أبحرت من أمريكا على الباخرة « نورماندى » لأصل باريس يوم ٢٢ . . وكان رئيس الوزارة « ادوار دلادييه » قد عين فى ٢٩ يولية ، صديق الحميم القديم « جان جيرودو » ليتولى وزارة الدعاية . وعنيت الحكومة بتركيز جميع الجهود لتكفل ، فى الداخل والخارج ، نشر الأفكار الفرنسية ، والحياة الفرنسية . أوبكلمة واحدة : حضور فرنسا فى محفل العالم . فسألنى جيرودو معاونته ، بأن أكون مساعده المباشر فى هذه المسئوليات الخطيرة ، التى لم يفهمها قومنا إلا أخيرا . .

فبدأنا العمل فى ٢٣ أغسطس فى مكتب صغير

متواضع بوزارة الخارجية « كاى دورساى » ، دون وسائل مادية ، ودون موظفين ، ودون ميزانية . . . كنا نعد العدة لتحقيق حلم جميل ! . .

وجاءت اليقظة سريعة ، موجعة ، وحشية . فنى ٢٦ أغسطس قال لى جيرودو : « إن تعبئة الجيش العامة تكاد تكون أمراً محتوما ، ولابد من أن نعد لها العدة . فقد بدأ هبوب العاصفة . ومررنا من حالة الضغط رقم «١» إلى حالة الضغط رقم «٢» .

وكان هذا الضغط المتواصل يسوقنا رأساً إلى قرارات لامندوحة عنها . ووزارة الدعاية ، التى هى عمل من أعمال السلم ، ومكرسة لشؤون الفكر ، ستتحول إلى سلاح من أسلحة الحرب ، فلا تغير اسمها ، وإنما طبيعتها . وأسلمت وزارة الدفاع الوطنى إلى جيرودو الملفات السرية لنظام العمل الجديد ، وأسماء جميع الموظفين والمعاونين فيه . فانتقلنا للحال معهم ، إلى فندق الكونتننتال .

وقد غادرت فندق الكونتننتال هذا فى ١١ يونية سنة ١٩٤٠ ، فى ساعة الغروب ، عند ما كانت وحدات الألمان المصفحة ، وأعمدتهم الميكانيكية تتقدم نحو باريس ،

التى قطع مابينها وبين الشرق والغرب . وكنت فى عشية
ذلك اليوم ، أسمع ، من شرفة غرفتى بالدور الخامس ،
مدفع المعركة الذى يهدد باريس . . .

إن النقص التام فى بعد النظر ، وفى الاستعداد ،
قد وقف فرنسا المفلولة السلاح ، مادياً ومعنوياً ،
لتواجه أداة حرب الدعاية الهائلة التى يقودها « جوبلز »
منذ ١٩٣٣ . . وسيذكر التاريخ حكاية الرقابة ، والدور
الذى لعبته السياسة بها ، وعدم الإدراك الذى لايتصوره
عقل من القيادة الحربية العليا إزاء ضرورة الدعاية
وأهميتها ، والمصاعب التى لاتنتهى ، والتى عرقلت عمل
مراسلى الحرب الأجانب ، والبطء الموئس من المصالح
الحكومية فى شؤون الميزانية ، والمعارضة الخفية أحياناً ،
والعلنية أحياناً ، من جانب البرلمانيين لعمل وزير الدعاية
جيرودو - لأنه أراد أن يبعد عمله عن كل سياسة
حزبية - والمناورات الشائنة للمحافظة على استقلال محطات
الإذاعة الحكومية - بفضائحها وعجرها وبجرها - حتى
لايشملها إشراف وزير الدعاية - وهو سيدها المطلق
غير منازع - وقصر نظر حكومة دلادييه ، التى لم ترد

قط ، أن تفهم ماأراده العدو وماعمله مما جعل الدعاية - فى الداخل وفى الخارج - من أعظم أسلحة الحرب وأشدها فتكا ، بحيث لاتقل خطراً عن الغواصات أو الغازات السامة . . . أجل ، إن هذه كلها أشياء لابد من إلقاء النور الساطع عليها . . فهى دروس دفعت ثمنها فرنسا ، - هزيمة مرة - ويمكن أن تنتفع بها كافة البلدان فى كل الأزمان .

● ما كدت أنزل أمريكا من باب الطائرة البحرية « كليبر » عابرة المحيط ، حتى كان السؤال الأول الموجه إلىّ : « هل أنت مع « فيشى » أم عليها ؟ » أو : « هل أنت من أنصار دى جول أم من خصومه؟ » ! . . .

وحملتنى هذه الإنذارات ، فى هذا الشكل القاطع القاسى ، على عدم الرد ، ولا أزال أرفض الرد . . إن من يكون « مع » ، يكون موافقاً ومسلماً ، ومن يكون « ضد » ، يكون بمثابة من ينبذ شيئاً فى غضب واشمئزاز أو حزن . . .

وليس ثمة أخطر من هذه المواقف التى لاوفاق ولا توفيق فيها - مواقف « الأسود » أو « الأبيض » ، « نعم » أو « لا » . . ونحن فى صميم قلب المأساة . . .

« هل أنت مع فيشى أم عليها ؟ » .. إن هذا ليس مرضاً شخصياً فى الكبد أو الطحال ، يشخصه الطبيب لمريضه ، ولكنه أمر أجل وأسمى من ذلك ، إذ يتعلق بألم فرنسا القاتل ، الذى أضناها ، فلا يجوز التطرف والاندفاع فى هذا الجانب ، أو ذاك ، بل ينبغى أن نقيم الحقيقة بعناية وحذر ، فننظر بدقة ووضوح ، ونتصرف تصرف من يعلم أن عمله ليس وقفاً على اليوم الذى هو فيه ، بل ربما امتد إلى بقية حياتنا ...

● لقد غادرت باريس فى ١١ يونية ، آخر النهار ، لأكفل جلاءنا ، ثم استقرارنا فى « مولان » على نحو ٣٠٠ كيلومتر من باريس ، حيث تقرر أن تقيم وزارة دعايتنا المؤلفة من نحو ثلاثمائة شخص ، فضلا عن مائتى (زكيبة) كبيرة من الأوراق ، والمواد الكتابية ، وكمية ضخمة من « العفش » . وكان قد تقرر فى الوقت نفسه أن يسافر الوزير ، ومكتبه ، والرقابة ، وإدارة المطبوعات ، والراديو الخ .. إلى مدينة « تور » . وكنا نحن سننزل فى مدرسة البنين بمدخل المدينة . وألقيت نظرة وداع أخيرة على مكاتبنا التى نهجرها فى فندق الكونتننتال ، حيث بقيت مجموعات

الصحف ، والكتب منظمة منسقة ، تنتظر عودة الموظفين المخلصين .. لو كانت قدرت لهم العودة !.. فإن الموظفين الألمان هم الذين احتلوا هذه المكاتب بعد بضعة أيام ، ولعل رأيهم فينا كان لابأس به . .

وقد تغير موعد القطارات التى كانت ستحملنا ، أربع مرات على الأقل ، كما تغيرت محطة السفر مرتين !.. لذلك لاأدرى بأية معجزة قد تجمعنا بقضنا وقضيضنا ، و « زكايب » الوثائق ، من فندق الكونتنتال ، على رصيف المحطة ، وأجاب الكل النداء ! . .

● وكانت الساعات طويلة ثقيلة . تجيئنا الأنباء مرتين فى اليوم على الأقل من مركز القيادة العامة ، أو وزارة الخارجية . كانت تجىء « مقطرة » للرقابة ، والصحافة ، بعد أن تحجز منها الحقائق العكرة . . ثم جاءت الساعة التى يجب أن تقال فيها الحقيقة ، الحقيقة المؤلمة ، فجاء « بول رينو » فأنزل على البلاد صواعق من الأنباء التى هى أشد ماتكون هولا وويلا ، مهما أحاطها وغلفها بأقوال الأمل والثقة .. فأدركت ، أكثر من أى وقت مضى ، الغلطة الخطرة التى ارتكبتها ، طول الحرب ،

الرقابة الفرنسية ، سواء كانت فى يد دلادييه أو سواه .

فإن إخفاء حقيقة الوقائع ، عند حدوثها ، دليل على عدم احترام الرأى العام الذى يستحق أن يعامل بخير من هذا ، والذى لايسبب له هذا الإخفاء إلا توتراً أشد فى الأعصاب ، فى حين هم يحاولون به تهدئته !..

● وفى خلال حملة النرويج ، عندما أصبح بديهياً ، أن المغامرة قد ساء حالها . . . لماذا ظلوا يغذون الفرنسيين بالأوهام والآمال الخرافية ؟ ! لقد ظللنا يوماً بعد يوم ، نحتج ، فى كثرة وفى شدة ، ضد هذه الطريقة العقيمة التى يرثى لها . . . ثم جاء من الدهر ، صباح تحتم فيه الكلام عن التقهقر والجلاء ، أى عن الهزيمة . . وبذلك كانت الصدمة من القوة بحيث لا يمكن أن تقاس . . . لو أنهم تركوا الرأى العام يسبق ، فيتبين الأمر يوماً فيوما . . . ثم أى عبث أطفال ! ؟ . . ذاك الذى يدعى أنه يمكن أن أن يخفى عن شعب بأسره ، حقيقة تعرف فى الخارج ، وتنشر على أمواج الأثير ! . . لقد عجزنا تماماً عن إقناع رئيس الوزارة ، بحكمة نشر بلاغ القيادة الألمانية العليا فى جرائدنا ، حتى إذا ما كان كاذباً واجهناه بالحقيقة ،

والوقائع التى لا سبيل إلى نكرانها . وإذا كان بلاغها صادقاً اعترفنا بصدقه ، ودعمنا به الثقة فى أنبائنا . . . زد على هذا أن الصحف الإنجليزية ، والسويسرية ، والإيطالية ، كانت تباع فى جميع الأكشاك ، وأن الفرنسيين ، خلال ٢٤ ساعة فى اليوم ، يستمعون لراديو لندن ، وروما ، وبرلين ، وستوتجارت . وكانت نتيجة هذا العناد المهلك ، أن الفرنسيين قد تلاشت ثقتهم بالصحافة الوطنية ، واتهموها بكافة أنواع التهم والمثالب . . . ولم يكونوا فى هذا من الظالمين .

ولقد كنت من جانبى ، منذ ٢٠ مايو ، يائساً كل اليأس ، من إمكان المقاومة لإنقاذ باريس ، أو وقف طوفان الغزو . وكان ينبغى مع ذلك ، الضغط على الأيدى ، والتجلد ، وعدم النطق بأقوال القنوط . وكان كل منا مكلفاً بنفوس من حوله يتعهدها . . ولكن كم من مرة ـ وأنا أدلى إلى بعض المساعدين لى بالأنباء السرية التى لابد أن نبرقشها ونزخرفها ـ قد شعرت بحسرة فى القلب وغصة فى الحلق . وفى يوم ٨ يونية سنة ١٩٤٠ ، فى الساعة الثالثة صباحاً ، تكلمت لآخر مرة ، فى محطة

إذاعة « باريس - مونديال » مخاطباً الولايات المتحدة ، أحاول ، واحسرتاه ، خلال رسالة أخيرة ، أن أبحث أو أكون أسباباً للرجاء بمعجزة ، من حيث لم تعد ثمة معجزة ولا رجاء ، أقول : إن أصدقائى الذين سمعونى قالوا لى بعد ذلك : إن صوتى لم يخدعهم .. فقد فهموا منه أن كل شىء قد انتهى ..

وقد انهارت المقاطعات الفرنسية أمامنا ، كما لو كانت أوراقاً تطوى سراعاً .. فاكتسحها طوفان الغزو واحدة بعد واحدة ، فهذا إقليم « الأين » ، ثم « شمبانيا » ، ثم « ارتوا » ، ثم « بيكاردى » ، ثم « نورماندى » ، ثم وادى السين ، ثم ضواحى باريس نفسها !.. ثم طرقت آذاننا أسماء تلك الضواحى التى كانت تمثل عندنا نزهات يوم الأحد الجميلة ، وقطف الزهور . . وهاهى ذى سقوف فندق الكونتننتال تهتز من دوى المدافع وزئير القنابل !..

لقد كانت أيام باريس الحرة الأخيرة من أعجب الأيام . . فقد خلت المدينة تقريباً من أهلها ماخلا أحياءها الوسطى التى ظلت مزدحمة .. فقد هربوا إلى الأقاليم طالبين ملجأ لهم فى انتظار تحول الحظ ورحمة الحوادث ..

وكان الناس الذين بقوا فى باريس محطمين واجمين من هول الخطر المعلق فوق رؤوسهم ، معتزمين أن يواصلوا الحياة ، كما لو كان بقاؤهم هذا سيحول من مجرى الكارثة !!.. وإنى الآن لأذكر بائعة الزهور فى شارع كمبون ، التى كانت فى ذاك الصباح ، الذى وصل فيه الألمان إلى مرمى حجر من قلب باريس ، تنظم الزهور ، وتنسق عيدان الليلك والزنبق ، فى واجهة دكانها البلورية . . . وإنى لأذكر صاحبة المطعم الصغير الذى تناولت فيه وجبتى الأخيرة ، فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، حيث راحت تعتذر لى بأنه ليس لديها زبدة من الصنف المعتاد ، لقد كانت تخشى أن يكون متعهدها اليومى - ذلك الفلاح من ضواحى « شانتيي » - قد حجزته صفوف الألمان الزاحفة . . .

وبينا كنت أجتاز فى سيارتى الصغيرة شوارع باريس لأخرج من ناحية « بورت ديتالى » ، تابعت المسير على أرصفة نهر السين ، ملقياً نظرة الوداع على ذلك المشهد الرائع من ماء النهر ، والزهر ، وآيات المدنية . . وبينا كانت باريس تعيش ساعات حريتها الأخيرة ، فتح باعة

الكتب على رصيف النهر صناديقهم ونشروا كتبهم . . فى انتظار القراء . . وكانت أمام المجمع العلمى ، بائعة تنفض الغبار عن « المداليات » العريقة ، والتحف القديمة ، لتجعلها زينة للناظرين . .

وكانت السماء ، فى ذلك اليوم والمشهود ، أشد ما تكون على الأرض حناناً وصفاء . . كأنها مشفقة مما سوف تلقاه باريس . . وتحت نافذتى ، أطفال يلعبون فى حديقة « التويلرى » ، ويطلقون قلاع مراكبهم الورقية فى بركة الماء . . وهناك ، من بعيد ، على برج إيفل ، ستظل تخفق ، ليومين آخرين ، الراية المثلثة الألوان . . ومع ذلك كانت المدينة العظيمة ، الشائقة ، الصابرة ، تبدو كما لو كانت تتوقع من دهرها مالم يعودها . . كأن انهياراً هائلا سيحملها فى غماره ، وكأنما قد نشر الآن عليها ، شراع الحداد ، ولا يلبث أن يجللها بالسواد . . .

***

● جنود ومدنيون ، جنود بغير قواد ، وقواد بغير جنود ، أمهات فقدن أولادهن ، وأطفال تائهون ، مشردون ، يبكون ويعولون وحدهم ، على مسيرة أربعة

أيام من بيوتهم التى خربتها الغارات . . وعقدت الهدنة ومضت شهور ، وكان لايزال فى أكتوبر ١٩٤٠ عدة ألوف منهم لم يجدوا إلى والديهم سبيلا . لقد كان هذا كله رمز فرنسا التى مُزِّقت إربا إربا . فصارت لاتعرف نفسها ، ولا إلى أين مسيرها ، وقد انكسر قوادها ، وهى تلهث ، وتحطمت قوائمها ، وشرد بصرها ، نحو غاية مروعة لاتصدق . .

● كانت العاصفة تهب ، وتزمجر ، وتعمى العيون والأبصار . . . وانتقلت وزارة الدعاية ، المكونة من ثلاثمائة شخص ، من باريس إلى مولان ، فى عربات سكة الحديد المخصصة للحيوانات ! . . وكنت تجد تلك البلدة الصغيرة التى لاتتسع ، فى وقت السلم ، لغير ١٣,٠٠٠ نسمة ، قد غصت بسبعين ألفاً ! . . ثم عندما تقهقر الجيش صار عددهم ٧٨,٠٠٠ ! . . ولم يعد فى البلدة بالطبع مايكفيها من الطعام . فكنت تجد الناس فى صفوف لا آخر لها أمام محال البقالة ، لينصرفوا بعد ذلك بلا شىء . . فتجد المحال تكتب بالطباشير على واجهاتها : « لا سكر ، ولا بن ، ولا زيت ، ولا صابون ،

ولا كبريت ، ولا زبدة ، ولا سردين ، ولا مربَّى ، ولا حلوى ، ولا جبن » ! ! وقد يبلغ عدد هذه الأصناف أحياناً تسعة عشر صنفاً ! . . فماذا كان يمكن أن نجده بعد ذلك ، مما يؤكل أو يشرب ؟ !

وفى أماكن أخرى تقرأ : « لا لمبات غاز ، ولا غلايات كهربائية ، ولا حقائب ، ولا دوبارة ، ولا صفائح فارغة » ! . . أو قد تقرأ الإعلان الآتى على دكان إسكاف : « يستحيل قبول ترقيع الأحذية قبل ثلاثة أسابيع » . . فالويل إذن لمن خرجت أصابعه من حذائه ، فليضرب فى الأرض حافى القدمين ! ! وكانت ثالثة الأثافى أن تجد حلاقاً للسيدات فى شارع «غمبتا» يعلن عميلاته بأنه لم تعد لديه صبغة للشعر ! . .

أما ماكان يجرى من أجل الحصول على صفيحة من البنزين ، فحدث عنه ولا حرج . . وكان قد بقى للجيش شىء منه . . . فترى النساء الجميلات يقصدن المعسكرات المجاورة فى المساء ، ليحصلن على خمسة لترات ، خفية وتهريباً ، ـ يحملنها كما لو كانت الشمبانيا ـ الله يعلم بأى ثمن ! . .

● ولما كان قد صدر أمر من البوليس بعدم بيع أكثر من رطل من الفاصوليا الخضراء أو البصل ، لشخص واحد ، فكنت ترى أستاذاً للفلسفة بجامعة السوربون ، أو مديراً سابقاً فى جمعية الأمم ، يسير فى الطريق ، حاملا الخضر فى جريدة قديمة ، كما لو كان يحمل ذخراً مقدساً !

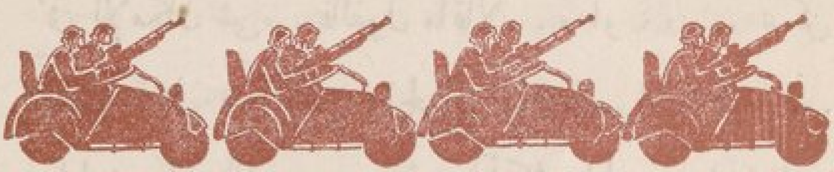
ثم أعلن صوت الماريشال بيتان ، والقلب حسير ، وقف القتال . . . وكنا نستمع إلى الراديو فى مقهى صغير ، إلى ذلك الصوت المرتعش حزناً وتأثراً على بلاده ، وإلى جانبى امرأة أمسكت رأسها بين يديها ، وهى تنتحب . ونهض طياران ، وقد احمرت عيونهما من الأسى ، وترتعش شفاههما ، كالأطفال عندما يجهشون بالبكاء . .

وقال البعض : « إن فى الأمر خيانة ! » . . أليست هذه أول صيحة أمام كل هزيمة ، أمام كل كارثة ؟ ! أو تسمع : « إننا لم نكن على استعداد . . لانحن ولا الإنجليز أيضاً » . . أو : « أتعرفون كم كان عدد مالدينا من المدافع المضادة للطائرات ؟ ومن الفِرَق المصفحة ؟ . .

لاشىء يستحق الذكر » ! . . وقال جندى : « أتعرف ياسيدى أننى بقيت أياماً على ضفاف نهر « السوم » وليس فى بندقيتى إلا خمس خرطوشات ، ثم لاشىء بعد ! . » أو : « إنه الطابور الخامس الذى حطمنا ! . » أو : « لو أن الإنجليز لم يتخلوا عنا ! . . ولكنهم ، فى « دنكرك » ، لم تكن تتملكهم إلا فكرة واحدة ، هى : أن ينسحبوا ويعودوا إلى بلادهم ، ويتركوا الفرنسيين يذبحون ، حتى يتمكنوا هم من الجلاء والإبحار » ! . أو : « إذا كان بيتان وفيجان يقولان إنه لم يعد فى الإمكان شىء ، فالقول ما قالا . . » أو : « . . يمكن المقاومة فى مراكش والجزائر والمستعمرات جميعاً . . فالجيش لم يهلك . . . ولله ما أكثر الجنود على قوارع الطرق ! . » أو : « إن المذنبين الحقيقيين هم الشيوعيون ، فقد رمونا بدائهم وانسلوا ! . . » أو : « إنه النظام الجمهورى كله الذى اختل وفسد من أساسه . . » أو : « انظر إلى الألمان ، فقد كانت لهم قيادة . . أما نحن فلم يكن لنا . . فقد كان الناس عندنا يزعمون أننا فى حرب ١٩١٨ » ! . . أو : « دبابات وطائرات ، وطائرات ودبابات ، هذا هو

ماكان يلزمنا ، وكان ينقصنا » . . ثم تلك المرأة ، فى سواد شامل ، شقراء ، شاحبة ، من أهل الشمال ، وقد استندت بظهرها إلى شجرة ، وضمت إليها ولديها . وهى تقول ببساطة : « والآن ، ماذا سيكون مصيرنا » ؟ . .

وارحمتاه لهم ! . . إن الهدنة لم تكن بعد وقّعت ، والوفود لم تكن بعد التقت ، وهم يتهافتون على معرفة « أسباب الهزيمة » .



١٣

هل هذا هو ربيع الحرب الأخير ؟ . . . . .
الويل للمغلوب ! . . لافال عدو الانجليز اللدود
يقول : ان هدف ألمانيا هو روسيا الشيوعية . .

أيكون هذا الربيع ، ربيع الحرب الأخير ؟ أيكون بداية النهاية ، فتضع الحرب أوزارها ، وتتنفس الإنسانية الصعداء ، أم يكون هو الربيع الدامى ، الذى تسحق فيه الدبابات هامات الرجال كسنابل القمح ، وتخضب أودية الأرض بالدماء ، وتخنق رائحة الموت شذى الزهور ؟!

لقد تساءلنا مرة ، فى بعض هذه البحوث ، عن نسيج الغد . . وقلنا فى أول مايو عام ١٩٤١ : ترى . . من أى نسيج ينسج علم فرنسا غداً ؟ . . وأى النسمات ستخفق فى حواشيه ، أهى النسمات المقبلة من الأودية الحرة ، والجبال النافضة عنها غبار الذل ؟! . . لأن فرنسا التى رسمت حريات العالم ، لا ترضى أن يقطعها « لافال » كما كان آله يقطعون الأبقار ! . . أم هل تتنزل فرنسا لألمانيا ـ ثمناً للصلح ـ عن « الالزاس » و « اللورين » ، ومناجم

الحديد ، وما تطمع فيه من شواطىء . . وتنزل لإيطاليا عن تونس والريفييرا حتى مدينة « نيس » . . وتنزل لأسبانيا عن مراكش الفرنسية بما فيها « كزابلانكا » . وتنزل لليابان عن الهند الصينية ؟ ! .

وإلا فما هو ثمن صلح « لاڤال » ؟ ! وهل تكون ألمانيا الآن فى حرج شديد ، فتضحى بمطامعها فى أرض جارتها ، وترغم محورها « روما - طوكيو » على مسالمة فرنسا طمعاً فى الخلاص ، أو رجاء الفوز على روسيا وبريطانيا ؟ !

هذه هى المسألة . .

فما أعجب أن نرى اليوم الدولة المهزومة - فرنسا ، تلك التى انكسرت فى صيف ١٩٤٠ ، وأصبحت مأساتها مأساة العصر الحديث ، التى ستظل حديث كل العصور ! - تتقلب ذات حول وطول ، يحسب لرضاها وغضبها ألف حساب ! !

إن الذى يتتبع الحوادث ، لا يسعه إلا أن يرتجف لمقدم هذا الربيع . . فهو الربيع الحاسم ، فكما نرى الثلج يذوب ، سنرى عالماً من الممالك يذوب وينهار . .

فلنستمع للكاتبة الأمريكية « ڤرجينيا كاولز » ،

الصحفية الذائعة الصيت ، التى حضرت انهيار فرنسا ، لتمهد لقرائنا جواً فرنسياً خالصاً ، يمكنهم من الوصول تدريجاً إلى هذه الحقبة التاريخية ، التى قسمت تاريخ البشرية قسمين منفصلين تماماً ، كما لو كانت سيفاً يقطع جسداً شطرين . .

● كان على الطائرة نحو اثنى عشر راكباً . ولم يكن منا أحد يعرف فى أية بقعة من الأرض ستنزل الطائرة . كانت ستنزل فى « مكان ما من فرنسا . . » ، فحلقنا فوق المانش ، ثم انخفضنا عند ساحل فرنسا ، حتى كدنا نميز الكائنات ، ونمس سطوح البيوت الريفية المنتشرة على طول الطريق . . .

وكانت طائرتنا تتجه إلى ناحية ، ثم تتحول إلى ناحية أخرى ، فى خط متعرج دائماً . . وبعد ساعة ونصف ساعة ، بدأنا ندور حول مطار كبير . فرأينا فيه حفراً ، كأنها فوهات براكين ، حفرتها قنابل الأعداء ، وكانت حظيرتان من حظائر الطائرات الثلاث ، قد سحقتا سحقاً فصارتا أثراً بعد عين ! . . وهرع إلينا الناس من مبنى المطار وهم يشيرون إلينا ، كأنهم لم يروا من قبل بشراً سوياً ! . .

لقد تحول الحقل إلى مطار حربى ، فلما نزلت بنا الطائرة ، ازدحم العمال ، فى سترهم الزرقاء ، حول الطائرة يحدقون باستغراب فينا . . . كما لو كنا قد سقطنا من المريخ ! . . فسألت أحدهم : « أين نحن؟ » فأجابنى : « فى مدينة تور » - وهى على مسيرة ثلاث ساعات من باريس - . . فلم أدرك معنى استغرابهم وتعجبهم من وصولنا ، إلا بعد ما علمت أن طائرتنا هى الطائرة الأولى التى تصل بعد ثمان وأربعين ساعة ! . .

وكان السبب الوحيد لوصولنا ، أن الطيار الذى قادنا ، قد ناقش الشركة فأقنعها بتحمله وحده أخطار الرحلة ، فرضخت ، فى آخر لحظة ، وسلمت له بالرحيل . .

وفى الساعة الخامسة وصل مفتش الجمارك ونظر فى حقائبنا . وكان معه أحد رجال موظفى شركة فرنسا الجوية ، فلما سألناه عن مواعيد القطارات ، قال بكل هدوء : « إلى باريس ؟ ! طبعاً ! . فهناك قطار مسافر بعد عشرين دقيقة » .

ويقيناً ، لم أكن على استعداد للمشهد الذى استقبلنا عند نزولنا بمحطة «أوسترليز» فى باريس . . . وكانت الساعة نحو الخامسة صباحاً ، وقد بدأ الفجر يبزغ . .

والمحطة تكاد تكون مقفرة ، وما من أحد بالباب يجمع تذاكرنا . . والحق أنه لم تكن ثمة علامة من علامات الحياة . فلا حمَّال ، ولا سيَّارة أجرة ، ولا بائع صحف . . لا شيء . . . !

ولكننا عند ما خرجنا إلى عرض الطريق ، رأينا مايتباين مع ذلك ويتناقض . . فقد كانت البوابات الحديدية مقفلة بالرتاج ، وأمامها جمهور لايحصى من الناس ، يضجون ويصرخون . . كان بحراً زاخراً من الرؤوس والوجوه . . وكان كل شخص محملا بالحقائب والربط والصرر ، بل حتى بأقفاص الطير وكل أنواع الحيوانات من قطط وكلاب . . وقد اعتلت شرذمة من الشرطة قضبان البوابات الحديدية صائحين فى الناس يصرفونهم :

« لا توجد قطر مسافرة من باريس ! ! . . فقد سافر آخر قطار ! . . فاذهبوا إلى بيوتكم ! . . قلنا لكم أن لا قطارات تغادر باريس » . . .

فشققنا طريقنا خلال هذا الزحام ، ورأيت سيارة أجرة ، قصدها عشرة أشخاص ، كنت أسبقهم إليها ، ولم أعرف - إلا فيما بعد - حسن طالعى ، إذ وجدت سيارة

الأجرة الوحيدة فى باريس خالية ! ! !

فقصدت أولاً فندق « ريتز » الشهير . . ودققت الجرس . . . فبعد خمس أو عشر دقائق ظهر البواب ، وفتح باحتراس ، وأخبرنى بأن الفندق مغلق : « لقد سافر الجميع » ! . . . فتوسلت إليه أن يعطينى غرفة ، فقال لى : « كيف ذلك ، والفندق أقفلت أبوابه ، وقد رحل السادة والخدم . . ولم يبق ديار ولا نافخ نار ! . . » . . ثم دفع الباب بعنف . . .

فقصدت عندئذ فندق « فندوم » ، على مسافة قريبة . . فسمعت الشىء نفسه . ثم بدأت دورة ، لا تكاد تنتهى ، فى طول باريس وعرضها . .

وقد سألت مالا يقل عن خمسة عشر فندقاً . أغلق بعض بوابيها الأبواب فى وجهى ، وصاح الآخرون غضباً ، ورفض غيرهم أن يردوا الجواب ! وكانوا إذا ما سألتهم هل يعرفون فندقاً مفتوحاً ، حملقوا وهزوا رؤوسهم ، وعبسوا ، وتولوا . .

فيئست من الفنادق ، ويممت وجهى شطر البيوت ، وقررت أن أبحث عن بعض أصدقائى . فسألت السائق

أن يأخذنى إلى رصفة « دى بتون » حيث يسكن عميد الصحفيين الأمريكان « نكربوكر » . وكانت الأبواب الكبيرة مقفلة . ولكننى بعد ما قرعت الجرس زهاء عشر دقائق بدأت ضجة ، وأزيح الرتاج ، وفتح الباب ، فدخلت إلى الحوش ، فسمعت البوابة تصيح من نافذتها :

— من بالباب ؟ !

— هل المستر نكربوكر هنا ؟

— لا ! لا ! . . إنه غادر باريس منذ ثلاثة أو أربعة أيام ! . .

فالآن ، لأول مرة ، بدأ يساورنى القلق . فإذا كان نكربوكر قد سافر ، فلابد من أن الأمر جد ، وما هو بالهزل ، وأن الحالة سوء . . فاتجهت إلى ساحة « المدلين » حيث منزل « دى وارد » فلم أكن أحسن حظاً . . رحيل آخر . فقصدت عندئذ « الشانزليزيه » ، إلى بيت البارونة صديقتى ، فإذا بالنوافذ مظلمة ، والبيت مهجور .

وعرض لى شارع « دوبارى » فتذكرت بعقلى الباطن أن الزملاء الصحفيين يجتمعون هناك فى فندق « لانكستر » . . للعب الورق . فقررت أن أسأل البواب

عرضاً عن المستر كار . . . فإذا به يجيبنى : « نعم يامدموازيل . . إنه هنا ! » ، فدهشت ، ولم أكد أصدق سمعى ! وسألته مقابلته للحال . . فاحتج البواب بأنه لم يستيقظ بعد . . ولكننى أقنعته بإيصالى به بالتليفون الداخلى . . فرد على صوت حالم :

— من أنت ؟ ! . .

— أنا ڤرجينيا كاولز . . هل لك أن تسلفنى مائة فرنك لأدفع أجرة التاكسى ؟ ! فليس معى نقود مطلقاً ! .

— سبحان الله ! . . من أى سماء سقطت ؟ ! وماذا تفعلين هنا ؟ ! . . هل جئت لحضور الاحتفال بالاحتلال ؟ !

— رباه ! . كلا ! . إنى جئت ليوم أو بعض يوم ! .

فقال ولتر كار :

— إما أنك جننت ، أو أننى جننت ! . . وعلى كل حال سأرسل اليك النقود وأقابلك بعد ساعة على الفطور . . هل يكفيك ٢٠٠ فرنك ؟ !

● فى صبيحة الخميس ١١ يونيه سنة ١٩٤٠ ، فتح الناس فى انجلترا وأمريكا صحف الصباح ليقرأوا : « الألمان على ١٧ ميلا من باريس » ! . فياليت شعرى ، كم من الناس

يعلمون أو يتصورون كيف كانت يومئذ حالة باريس ؟!

إن أحداً من الناس لم ير باريس مثل هذه من قبل . وليس فى وسع أكثر من خمسة أو ستة أجانب، أن يرووا حكاية جنة الدنيا ، وقد ضرب عليها السكون حجبه الخرساء ، وانطفأت أنوارها ، وأقفرت طرقاتها ، وأغلقت مقاهيها ، وأنزلت سجفها على نوافذها وأبوابها ، وتقطعت أسباب مواصلاتها ، فلا برق ، ولا تليفون ، ولا حركة ، ولا نأمة . . إن باريس صامتة باكية ، لا تكاد تجد فيها « كلباً » ينبح ، أو « قطة » تموء . .

واعجبا ! . . ففى الساعة الخامسة أو السادسة من الصباح ، لم يكن ثمة شىء غير عادى فى النوافذ المغلقة والشوارع الخالية . . ولكن الآن ؛ الساعة العاشرة . . لما نزلت مع زميلى ولتر كار إلى « الشانزليزيه » ؛ كانت أشعة الشمس تتدفق من خلال أشجار الكستناء ، كما كانت دائماً ، فى شهر مايو ، وإن كان ذلك كله يذكرك بباريس التى عرفتها من قبل .

● لقد اختفت ضجة المدينة ، وتفرق زحامها ، وتبددت رائحة الدخان العبق ، ولم تعد الينابيع الفوارة ،

والنافورات البلورية ، فى ساحة « الكونكورد » ترسل نحو السماء أذرعها النحيلة الفضية من ماء كاللجين . . . اليوم لم تعد إلا أحواضاً جافة وقمامة ذابلة . . . وكانت سيارتنا هى السيارة الوحيدة فى شارع « الشانزليزيه » كله . . . لقد كان الشارع هاجعاً هامداً ، حتى لقد وصل إلى سمعنا صوت المطاط يرتفع على حصباء الطريق . .

فرحنا نتجول خلال الشوارع الجانبيـة فى الحى اللاتينى ، ووجدنا الشوارع مزدحمة فى أفقر أماكنها . وكان باعة الفاكهة والخضر المحملة على عربات اليد ، ما زالوا يبيعون كعادتهم ، وربات البيوت يساومن بإلحاح كما هى دائماً عادتهن ! . . أولئك كانوا قوماً من جهد الفقر بحيث لا يستطيعون عن باريس رحيلا . فلما عدنا ثانية إلى الشوارع الكبيرة « البولفار » ، كانت علامة الحياة الوحيدة ، هى جماعات عرضية محملة بالحقائب والصرر ، تغادر العاصمة على الأقدام . . . ومن حين إلى حين ، تخرج سيارة من حارة أو زقاق ، مثقلة بركابها ومتاعهم ، وقد حزموا على أسطحها ما ملكت أيمانهم ! . .

إننى لا أريد أن أتذكر باريس هكذا . . إن ذلك

كان كمن يشاهد شخصاً عزيزاً عليه يحتضر . . كمن يرى وجهاً لم يعد يعرفه ، لأن المرض قد شوهه . . .

إن عاصمة النور والحبور كانت من رهبة الأربع والعشرين ساعة التى ستحياها ، قد هبط قلبها ، وانخفضت دقاته ، وضعفت ، إلى حد لا تكاد تسمع خفقاته . . .

● فودعت باريس الساعة الخامسة مساء . ولما قصدت فندق « لانكستر » لآخذ حقيبتى ، نظر إلىّ البواب الذى كان جالساً واجماً إلى مكتبه ، وقال : « حتى أنت مسافرة » ! . . . وكان فى صوته معنى العتاب ، فشعرت فجأة بأنى مذنبة ، كما لو كان لا حق لى فى الرحيل . . ثم أضاف بحرارة : « إن بلادكم هى الآن أملنا الوحيد . . فقد أحب الأمريكان باريس على الدوام . . . فلعلهم الآن يذكرون الحب ويقدمون الغوث » . . .

● وبدأت رحلة أخرى إلى « بوردو » . . وإنى لأتذكر الآن تلك القصور المنيفة ، والأنهار الباردة ، ووديان الغاب ، والكروم ، والأعناب ، والخمور . . والزهور . . فعلى رغم احتشاد مواكب الذعر والألم ، والخوف والفوضى ، على قارعة الطريق . . . كانت الحقول

والأودية والمراعى كأنها من غير هذا العالم . . فرأينا ربات البيوت يحملن المؤن فى طرقات القرى ، والفلاحين يعملون فى الحقول أشد ما يكونون سلاماً ، كما كانوا دائماً . . كأن حياتهم منفصلة عن تلك الضوضاء الشنيعة التى من حولهم ، فعجبنا وتساءلنا : هل تراهم لم يسمعوا بالحرب قط . . . ؟ !

ووصلنا « بوردو » ، فإذا بها برج بابل . احتشدت فيها أجناس الأرض وألوانها جميعاً ، تحاصر القنصلية الأسبانية ، لتأخذ إذناً على جوازات السفر . . والإشاعات عن قوة الألمان الجوية ، ودباباتهم الساحقة ، ووحدات موتوسيكلاتهم الخاطفة ، تملأ المكان . . وعلمنا أن الوزارة تتناقش فى تسليم فرنسا ، أو الاستمرار فى الحرب من أفريقيا الشمالية . . وقيل : إن رينو ، وماندل ، وماران ، ومونيه ، ودلبوس ، من أنصار الاستمرار فى النضال . . ولكن فريق « بيتان ـ لافال » كان يضغط بقوة للتسليم . .

● وكان وجه « لافال » ، الأسمر ، كثيراً مايلوح فى مطعم فندق « سبلنديد » . . . تراه فى جماعة من صحبه ، قد انحنت رأسه على المائدة ، يناقش ويحاور ، بقوة . . فذهب

إليه الصحفى العالمى نكر بوكر ، وقال له خلال حديث :
« مهما عملتم . . فلا تسلموا . فإذا استمررتم فى القتال ، فإنى واثق من أن أمريكا ستكون معكم ، ويكون النصر فى آخر الأمر لكم . . . أما إذا سلمتم الآن ، فقد انتهيتم . . . » . .

فابتسم لافال . . وقال . « ربما . . ولكننى غير موقن بهذا . . فإنى أعتقد أن فرنسا ليست هى هدف ألمانيا الأول . . إنى أظن أن هدفها الحقيق هو روسيا الشيوعية . . . »



١٤ الدنيا تتكفر بهذه الحرب عن آثامها . . الحياة هي الشر . . والإنسان حيوان . .

ليس « الربيع الفاجع » مجرد وقائع ضرب وطعان ، أو سجلًا للاجتياح والغزو ، ولكنه ، من خلال النار والحديد ، والويل والذل ، والدم والموت ، يطبع النفس البشرية على الورق ، وينشرها للعيان . .

سترى فى هذا الكتاب الشائق آية من آيات الفكر الفرنسى والفن الباريسى . إنك لن تجد فيه جمود أو برود الكتب الإنجليزية . سترى كيف تسير الحوادث سيراً طبيعياً بلا تصنع ، سهلا بلا تبذل ، قوياً بلا عنف . . سترى كيف يعيش الناس حياتهم من حب وكره ، ومن غيرة وحسد ، ومن أهواء وأطماع ، كأن الموت لم يكن يحلق فى سمائهم ، وكأن القضاء لم يضرب نطاقاً من النار من حولهم ! . .

سترى الشيخ تهفو نفسه إلى الحب ، والفتاة

تطمع كعادتها فى الزواج ، والمريض يتعلق بالشفاء ولو غصت الأرض بالجثث والأشلاء ! . .

فلندع « رنيه بنجامان » الكاتب العظيم يتكلم :

عندما يحاول المؤرخون أن يرووا قصة عام ١٩٤٠ ، فإنهم سيبدأون بفظائع الربيع الفاجع ، فى مايو سنة ١٩٤٠ - كيف يمكن أن أنسى انحلال الروح والبدن الذى أصابنى به دخول الألمان فى الدانمرك ، والنرويج ، وقد كان النذير باجتياح بلادى ؟ ! . .

وكنت ، طريح فراش مستشفى ، أضنتنى أشباح مخيلة ، محاصرة بحيطان غرفتى البيضاء . . فرأيت فى الليل - وأنا ألهث - ذكريات حرب ١٩١٤ . . تمر على الجدار الأبيض ، فوجدت نفسى ثانية بين الجرحى الذين يئنون ويُحتضرون . . ماذا كنت أشكو ؟ ! . إنى لأقسم أن دائى كان هو الحرب . . . فقد كانت تجرى فى كيانى المعارك ، وتسرى حمى التقدم أو التقهقر ، ثم الغياب فجأة عن الصواب بعد نزيف من جرح ، ومزيد من الأوصاب . . .

فلما ردونى على قدمى ، استعدت الاتصال بالواقع . .

وأشاروا عليّ بأن أعوض فى الهواء الطلق ماخسرته فى غرفة مغلقة.. فالتنفس هو حُلم، أى حُلم، للمريض والسجين والأسير!..

فاخترت بيتاً ريفياً على شاطىء «اللوار»، جئته فى ٤ مايو، شاحباً مندهشاً من كل شىء، ممتلىء القلب بالأمل، والحنين، والقلق.. كنت حريصاً على الحياة، ومع ذلك ماكان أقرب الحياة يومئذ إلى الحرمان!..

الفلاحان اللذان أقضى عندهما راحتى، لهما ولد فى ساحة الشمال. فطمأنتهما بأن فرنسا فى هذه المرة لاسبيل إلى غزوها.. فقالت الأم:

«أظن أن الدنيا ياسيدى قد انتهت فى ٣ سبتمبر».

ومع حاجتى الشديدة إلى الهدوء والصمت والوحدة، فقد أزعجتنى الوحدة بعد يومين اثنين. فكنت فى الليل لا أغمض عينى.. وأرهف أذنى، لأسمع مجىء شىء لا أدرى ماهو... ربما كان المصير... وكانت الفلاحة تقول: «.. آه من هذه الحرب الملعونة!.. إنها ستطول عشر سنوات، مالم تتحول يوماً ما، بغتة، إلى مأساة...»

وأشارت على مضيفتى القروية ، كما أشار قسيس القرية ، بأن ألقى الطبيب ، الذى كان رجلا ممتازاً يعالج النفس قبل الجسد . . وكان يعيش مع زوجة قاسية الفؤاد ، فانصرف بكليته لمرضاه . . فاستقبلنى مندهشاً لوجودى فى هذا الربع الخالى ! . . وجلسنا نتحدث فى الحديقة ، ثم بدأ يتكلم :

– إنك رجل مرهف الإحساس ! . أجل ! . فالطريقة التى تروى بها بيديك . . ثم شحوب لونك ! . . فالروح المعنوية متأثرة فيك أشد تأثر . . . إنك رجل شديد الجزع من الألم وممن يسببون الألم . . فالحرب هى داؤك ! . . ولكنى قد أدهشك إذا قلت لك : إننى بدأت أعتقد مع الفيلسوف « جوزيف دى مايستر » أن الحرب نظام إلـهى ! . فتقدم العلم لم يزد على أن يعلمنا النعومة ويضعنا فى القماط . هذا فى حين كان ينبغى ألا تكون هناك تربية تفضل تربية الرجال على تعود قسوة الدهر وخيانة الأيام ، ليواجهوا المأساة .

وإليك مثل الطبيب . . فهو لايجد فرقاً عظيماً بين أحداث الحرب ، وحياته العادية المألوفة . . فأنا رجل

قد تعودت الألم من زمن طويل ، ووصلت إلى نتيجة تقول بأن الألم ضرورى مادام هناك كل هذا الألم فى الدنيا . . وعبثا تبحث عن السلام ، والرقاد ، والنسيان ! . فلا بد من اليقظة دائما . فالإنسان يستيقظ ، كما تعلم ، ولو كان بين الموتى ! . .

فمهنتى ـ الطب ـ التى لا أرضى عنها بديلا ، تقول لى : « إن الألم ـ ككل شىء فى هذا العالم ـ له سبب » . وإنى أناضل لأخفف مما أظنه أمراً محتوماً ، كما توضع السدود أمام الفيضان . فالشر يتطلب الدفاع . والفضل لمن يثبت ويدافع ويقاوم ، سواء أكان طبيباً ، أم كان جندياً ، أم كان حاكماً . . . ولولا ضريبة الألم على البشر لما رأينا أوربا فى حلقة من اللهب ، ومستنقع من الدم . . .

ثم لماذا نعد ما أصاب الدنيا من الشر والألم ، أكثر من كفَّارة عن ذنوبها ، كانت فى حاجة إليها ؟ وإنى قد عرفت هنا ، فى هذه القرية ، امرأة لاتفعل إلا الخير ، لأنها لاتكف عن الإساءة والضر ! ! . . إن هذه القرية هى دنيا كاملة فلا تستهتر بها . وسوف ترى . . والمرأة التى أحدثك عنها ، هى النار الآكلة . .

مخلوقة على هامش الإنسانية . . شعلة حية ! . . فانظر إلى ذلك البيت الأبيض فى الطرف الآخر من الوادى ، على الرابية المقابلة ، تجد حريقاً آخر . . لهيب الحب ! . . آه ! . . إنى أرى عينيك ، يامريضى العزيز ، الآن تبرقان ! . . فإننى الآن قد أثرت اهتمامك ! . . بالكلمة السحرية : «الحب» . . أليس كذلك ؟ ! . . أتزعم إذن أنك تستدبر الشقاء ، لتستقبل الهناء ؟ ! كلا ! . . وعلى رغم أننى أتمنى أن لو رأيت الناس جميعاً سعداء ، فإننى أراهم يبحثون عن حتفهم بظلفهم ، فلا تكاد تخرجهم من شق ، حتى يقعوا فى حفرة ! . مثل ذلك الشيخ المدهش الذى يسكن ذلك البيت الكبير الأبيض . .

— كيف ؟ ! هل العاشق شيخ ؟

— أجل ياسيدى ، وفى السابعة والستين من العمر ! . . وهو سيتزوج بعد غد - ٩ مايو ١٩٤٠ - فى قران مشهود ، كاعباً حسناء تكاد تكون فى سن البلوغ . . وسأكون شاهداً فى دار العمدية وفى الكنيسة . وبذلك أتمكن من أن أراهما عن كثب . وكذلك تمكننا مهنة الطب من أن نرى أحسن من ذلك ، إذ تتلقى اعترافات

الجانبين . . وإنى لأعلن إليك أن حريقاً جميلا تعد له الآن العدة ، وسيهلك فيه رجل ممتاز فيكون للنار طعاما ! . .

— الشيخ ؟

— هو بعينه . إنه رجل قضى حياته فى الحذر والتبصر ، وهو الآن يطلق لنفسه الحبل على الغارب . . وهو أشد رجل عرفته مواظبة على مطالعة الكتب . . وهو الآن يقفل صفحاتها لأنه لم يعد يحلم إلا بالفراش . . . وهو أرستقراطى رفيع . . وسيضم إليه فى هذا الفراش فتاة من عامة الشعب . . فاعلم ياسيدى أن فى كل مكان مخلوقات لاتستطيع العيش فى سلام . . . هذا السلام الذى تنشـده أنت مثلى . . هو مستحيل ! . . ولكل ركن من الأرض ناره وسُعاره ! . .

ثم أخذ الطبيب بيدى قائلا :

— ياسيدى العزيز ، إنى مسرور بمعرفتك . . فاعذرنى إذا انصرفت عنك وشيكا . فلا بد لى من الذهاب إلى الشيخ العاشق الذى ينتظرنى لبعض شؤون العرس . . فعد إلى بأسرع ماتستطيع ، والأفضل

أن تجىء مساء ، بعد العشاء ، حتى أخلو لك . . فإن بعض الليالى هى أحياناً لى بطولها . . وما دمت أنت لاتنام ! . . .

يالهذا الطبيب الغريب ! . . فهو بدلا من أن يجعلنى أنام مبكراً ، يحملنى على السهر الطويل ! . . فودعته . . ولم ألبث أن تبينت أنه أحسن إلىّ . فقد زعمتُ نفسى متعباً مرهقاً بالحديث ، فلم أكد أخلو وأتأمل ، فيما سمعت ، حتى انتعشت أفكارى . . إن تياره الهوائى قد حركها من سباتها . . فإذا بها تذهب كل جانب ، وتصرف عنى الضيق والعناء ! . . ياللعجب ! لقد خفف عنى جزعى من الحرب ، إذ أرانى أن الحرب فى كل مكان ! . . ولكنه دلنى أيضاً على أنها قضاء محتوم ، وعلينا أن نفهم ونستسلم ، والأمر يومئذ لله . . .

وفى الليلة الثانية نمت ملء الجفون . . .

● ودعانى الطبيب إلى الكنيسة لأشهد قران شيخنا مسيو « لومنييه » ، قال :

ـــ إنه دبلوماسى قديم . . . وزير مفوض . . قضى فى الصين عشرين عاماً . وقد عاد من هناك فى نحو

الخامسة والخمسين ، يحمل طابع الصين من صفرة وجفاف وذهول وسكوت . . عاد من الشرق هادئاً يقول : إن المحرك الميكانيكى سيقضى على العالم ! . . وقد تزوج ، أول مرة ، من فتاة عانس ليست جميلة ، ولكنها فى سن متقاربة من سنه ، وأرستقراطية مثله . . عاشت وأمها معه ، إلى أن ماتت فى سبتمبر ١٩٣٩ ، شهر إعلان الحرب . . وكانت زوجة عظيمة ، وجيهة ، خائرة ، مضناة ، فى حاجة كل يوم إلى الطبيب . . ولعل هذا كان سر تعلق زوجها « لومونيه » بها . . فقد كان يكره الحيوية والضجة . كان رجل تأمل ، وتشكك ، وتراخ . . غير أنه لم يلبث أن ضجر من ذلك البيت المريض ، السقيم ، الصامت . كذلك الرجال ! . غير أنه كان من الوجاهة والكبرياء بحيث لايتدنى إلى البحث عن ملذات فى الخارج .

ثم حدث فجأة ماقلب حياته رأساً على عقب . فى خريف ١٩٣٨ ، بعد اتفاق « ميونخ » الشهير ، فى الساعة التى بدأ العالم يتنفس فيها الصعداء ، أملا فى الخلاص من الحرب ، ظهرت فى بيت مسيو « لومنيه » ، « كارولين » الفتاة التى أطلقوا عليها اسم « كارو » . . وهى بنت

قرويين بخيلين من القرى المجاورة . . دخلت كوصيفة لربة البيت و « لوانجية » . . . ولم يحدث دخولها هذا البيت الأرستقراطى العريق الرصين دهشة ، ثم حدث فى يوم حار مشمس ، من أيام أكتوبر ، وقد ظلت كارو طوال بعد الظهر تكوى « البياضات » ، أن استجابت إلى مسيو لومونييه الذى دعاها إلى قطف عناقيد العنب من الكرمة التى تمتد ، فى طريق ضيق مظلم ، مدى أربعين متراً . . . ولا يُرى هذا الطريق من البيت ، ولا من الحديقة . فهو أقرب إلى خدر . . ولعله كان ينتظرها . فهى تزعم أنها لم تسمع ولم تر . . . حتى وجدته لجأة أمامها . وكانت تمسك بيديها سلة العنب ، وتقول ، تفسيراً لإمساكها السلة باليدين معاً ، : « بعد أن انتهيت من قطف العنب ، وكانت السلة ثقيلة » ! .

ودنا منها لومونييه . . وقد شحب وجهه ، وقال : « يابنيتى ! . . لله ما أجملك ! . . إننى أتوسل إليك أن تدعينى أقول لك ، كما ينبغى : كم أنت جميلة ! . . » ثم انتهز فرصة عجزها عن الحراك ، وأخذها من خصرها ، وكان عليها ثوب مهلهل ، يكشف عن ثديين يحيران

الألباب .. وأصبح صدرها سجين هاتين اليدين الطويلتين ، اللتين خلقتا للتكريم والتحنين . . وانحنى لومونييه فقبّل ذلك النحر العارى ، بشغف وهيام . .

قال الطبيب : « وإن لدىّ من البيانات فى هذا الموقف مالايتاح إلا لشاهد عيان . فقد رواه لى كل منهما على حدة . . فقال الرجل : « إنها لم تزد على أن ألقت برأسها إلى الخلف كامرأة فاجأها الهناء ، ثم أغمضت عينيها ، لتزداد بالهناء متاعاً » . . وقالت المرأة : « إننى لم أستطع أن أفلت سلة العنب . . ولكن كاد يغمى علىّ ! . . » ثم أضاف لومونييه : « إنها كانت جميلة كجمال النهار الذى يضىء عليها . عين نجلاء سوداء كالليل الساطع النجوم . . . وذلك النحر الفضى ، شديد التأثر . . آه ! . . يالها من فتاة معبودة ! . . »

والحق أنها ، لاشك ، كانت فى حياة ذلك الرجل لحظة افتتان . . فقد اكتشف فيها عالمه الذى كان ينقصه من سعادة الجنان . . .

وكان ذلك فى بداية عام ١٩٣٩ ، عندما جاءت كارو تروى لى هذا المشهد غير راضية .. ولم يكشف لى

لومونيه ـ ذلك الرجل الفاتر ـ عنه إلا فى ابريل ١٩٤٠ فى حالة نشـــوة وانجذاب ، بحيث يزعم من يسمعه أنه ظفر بالمرأة عشيـة يومه ! . . وكانت بين ذينك التاريخين قد ماتت مدام لومنيه . . بعد إذ طال بها العذاب . . قضت نحبها فى ٨ سبتمبر ١٩٣٩ ، فأصبح الرجل حراً ، أى عبداً بالعقل ، والقلب ، والجسد، لتلك الفتاة الفلاحة « كارو » . . .

وأصرت صاحبتنا هذه على الزواج . فلما قال لها الأرستقراطى ، خشية كلام الناس : « إنك من زمن طويل فى أحلامى ، وفى جميع الصور التى تعرض على فكرى أو فؤادى ، إنك بالروح والوجدان زوجتى وغرامى !. » . . عرفت المغزى الذى يرمى إليه ، وقالت : « إذا كان هذا حقاً ، فهو يكفيك من دونى ! . . » . فهو كان يرمى إلى الحب المستور ، وكانت هى تلح فى الزواج المشهور . وكان حب شخصين من طبقتين متفاوتتين مثليهما لايذكره أحد بالسوء ، أما زواجهما فى هذه القرية ، فهو مجال لقيل وقال ، وأى مجال ! . . ومع ذلك استهان الشيخ بكل شىء : « إنى لم يعد فى رأسى ولا فى دمى إلا اسم كارو ،

وصورتها ، وجسمها الناصع الرائع !.» . . وحقيقة ان من يرى كارو ، يدهش من نصاعة بشرتها ، والنور المنبعث من كل جارحة فيها . . يقول الشيخ : «إن هذه المرأة فى بيتى بمنزلة النهير فى الوادى » ! . .

● الرجل حيوان غريب ! . . فإنى كنت محطماً من المرض ، ومن الحرب . . وكنا فى شهر مايو الذى لم تكف الصحف ، خلال ثلاثة أيام منه ، عن أن تذكر « تهديد هولندا » . . وكنا واثقين جميعاً من أن العاصفة تزمجر والإعصار يهب . . ومع ذلك ففى ٩ مايو ، قبل غزو هولندا بنصف يوم فقط ، لو أننى كنت لم أحضر حفلة زواج المسيو لومونييه ، لعددت نفسى شقياً . . . كان الفضول يلتهمنى التهاماً ! . . فالحب ، كما قال الدكتور ، : كلمة ساحرة ! . . وقد ألهبنى ما كان يلهب الطبيب من التطلع ، وقبس مما كان يضىء الشيخ لومونييه من الوجد ! . .

وظللت أرقب خلال القران هذا الشيخ ، رافع الرأس ، لاينظر إلى الكائنات ، وكأنه كان يحلق بالروح فوق الجميع ، فلا يتدنى إلى النظر إلى أحد . . ولم يكد

يلتفت حتى إلى عروسه ! . . ولم يكن شيخاً متهدماً ، بل كان رجلا بكل كمال الرجولة ، وكل جلالها . ورغم هدوئه الظاهر كانت النـــار ولا ريب تتلظى فيه ، وإلا لما تزوج خادمته . ولا بد من أن قوة تلك المرأة كانت لاتقاوم ، بحيث كسرت أنفه وخلبت لبه . . .

فكيف كانت « كارو » ؟ . إنها لم تكن فتاة عجفاء ، ولم تكن نحيفة . . . كانت جمالا يتضوع شذاه كزهور البرية . بل كانت فاكهة ناضجة ، نضجاً يسيل له اللعاب . . كان كل مافيها استدارة ورخاء . . . النحر ، والذراعان ، والساقان . . إن منظرها من تلك المناظر التى تخبل مخيلة الرجال كشبح بيت مسكون . . كان حسنها فاجعاً مروعاً ، بينما يحاول العقد المشروع أن يغطى شهوانية هذه المغامرة . . . ومع ذلك ، أفلم يكن الشيطان ومواكب شهواته تملأ مخيلات أولئك الذين يزحمون الكنيسة ؟ !

ورأيتها ، وقد أشرق عليها فجأة شعاع من الشمس وهى تصعد السيارة . . فبهرتنى الصحة التى تتفجر منها ، ونضارة بشرتها ، وكَحَل عينيها . . . وجاء الطبيب فهمس فى أذنى ، متمنياً لى نوماً هنيئاً . . . ثم ضحك قائلا :

« . . . أما هو ، فلن ينام ! . . »

ومن ذلك اليوم ، لم ينم فى القرية الشيخ المستهام ، ولم ينم فى فرنسا ـ بل فى أوربا ، من أقصاها إلى أقصاها ـ رجل ، أو امرأة ، أو غلام ، فالعاصفة التى كانت تزمجر قد أطلقت رياحها . . . وزحفت جحافل الألمان ، لاتترك رطباً ولا يابساً . . وسقطت المدن ، وسقطت الممالك . وكنت ترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد . .



١٥

الحب فى الحرب . . . .
ماجرى فى قرية صغيرة ،
رمز ماأصاب وطناً كبيراً .

كانت أوربا تدفع ضريبة الطمع والجشع ، والنفعية والوصولية ، وضريبة الخمر ، والإقلال من النسل ، وضريبة الترف ، والسفه ، والفجور . . .

ولم يكن قد مضى على ذلك العرس شهر واحد ، حتى قال لى صاحبى الطبيب :

— إن لومونييه على فراش الموت . . . وموته لغز يحيرنى . . فلا بد أن هذا الرجل قد ظل يتناول ـ طوال هذا الشهر ـ سموم الصين ومخدراتها التى جاء بها من مقامه الطويل فيها .

فذهبنا نودعه الوداع الأخير ، ورأيت كارو لأول مرة منذ حفلة القران . إن جمالها الملىء الغنى الناضج ، أقرب إلى الثمرة منه إلى الزهرة . . . فرحت أتأملها ونسيت ، لحظات من الدهر ، أن باريس فى ذلك

اليوم قد سقطت . . .

وصار الطبيب فى شغل شاغل بالدمار والموت ، عن الزواج والحب ! . .

كانت الطائرات الألمانية تلقى حممها ، فيهيم الناس من تحتها على وجوههم ، يغادرون بيوتهم ، وينسون أطفالهم ، يحاولون الفرار من مصيرهم . . « أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيَّدة » ! .

فى خلال أربع وعشرين ساعة ، بتر الطبيب أذرعاً وسيقاناً لثلاثة وعشرين شخصاً . . وقام بتسع وخمسين عملية أخرى ، ومات بين يديه ستة عشر ، منهم خمسة أطفال . . ولم تعد حياة عشرة غيرهم معلقة بأكثر من خيط . وظهرت زوجة الطبيب القاسية بمظهر الحزم ، تنظم ضحايا الغارات ، وتساعد زوجها فى عملياته وإسعافاته ، وتقاوم الذعر المتفجر من النفوس ، والحزن المتفجر من الأفئدة ، والدم المتفجر من الأجساد . .

● وجاء إلى بيت الفلاحَيْنِ الذى أعيش فيه نعى ولدهما . . على حدود بلجيكا . . . ولا أحدثك عن حزن الأم ، وصبر الأب . . فقد مضى ذلك الفلاح يعمل

فى حقله ليسمِّده ، وكرمه ليمهِّده ، دون أن ينبس . .
وكان دوى المدافع يسمع متقطعاً ، والطائرات المعادية لاينقطع أزيزها . وكانت « تور » أقرب المدن إلينا ، عروس نهر « اللوار » ، تلق وابلاً من النار والدمار . . . فعشت ، مع أهلها ، بالسمع والقلب ، عيشة الشهداء . . .
وفى الساعة الثانية من الصباح ، استيقظت على هدير الرعد ، فنظرت ناحية « تور » ، فإذا بالسماء تتأجج ناراً . .
كانت « تور » تلتهمها ألسنة اللهب ، وتحول الانفجارات المتوالية جناتها على مقابر .

وجاءت إلى البيت فتاة من باريس ، قالت إنها بنت عم صديق « لجوزيف » ـ ابن البيت ـ فقالت ربة البيت بصوت متهدج :

ـــ إن ولدى جوزيف أيتها الآنسة قد قضى فى ساحة الشرف . . .

فقالت الفتاة بفتور ، من نفس تافهة : « أوه ! . . » . . فأضافت الأم :

ـــ ولكن . . هذا لايغير من الأمر شيئاً . . فلن ندعك على قارعة الطريق . . ادخلى . . إننا جميعاً فى الشقاء سواء .

فشكرت ، ودخلت ، فتأملتها على شعاع الشمس الأخير . . . أظافر مخضوبة بالأحمر ، وكعب عال ، وشعر مسرح بعناية فائقة . . .

ـــ هل جئت من باريس على القدمين ؟

ـــ كلا لحسن الحظ ! . . فإني مجدودة ! . . حملتني سيارات مارة ، وأنزلتني الأخيرة منها على بعد خمسمائة متر من هنا . .

ـــ أليس لك أهل ؟

ـــ إني على غير وفاق مع أهلي . .

وفي ظهر اليوم التالي ، سألتني ، بلهجة المتضايق ، عن موعد تناول الطعام . . فأدهشني سؤالها ، ولعلها زعمت نفسها في فندق ، وتأملتها على نور النهار ، فإذا بها من تلك « العرائس » التي تنتجها المدن الكبرى ، بكميات هائلة ، زائفة الحسن ، ضئيلة ، عجفاء ، صناعية ، متناقضة مع كل ماحولها الذي كان طبيعياً للغاية ، وكانت متأففة ، مشمئزة من كل ماتراه . . قدمت لمضيفتها أصبعين لتحيتها ، وشكت من السهاد سواد ليلها . . . وتساءلت : « لماذا لايسرعون بتوقيع الهدنة ، ونحن في زمن السرعة الخاطفة ؟ ! »

وذكرت على المائدة ، أنها نالت شهادتها العالية ، ثم وجهها صاحب لها إلى « الموضة » ، وصناعة الأزياء .

— إنى ماكنت لأطيق العيش فى حقل . . . وأن أبقى طول النهار فى القذارة ! . .

فنظر إليها القروى ، وقال بألم ، رغم مافى صوته من هدوء :

— إذا كنت تجدينا قذرين ، يا آنستى الجميلة ، فليس من يرغمك على البقاء . . فتوجد قصور فى الضاحية المجاورة ، تنزلين فيها على الرحب والسعة . . على شريطة أن تقولى لأهلها كلاماً رقيقاً . .

فهزت كتفيها ، ناقمة :

— أأقول ذلك ضدكم ؟ ما أتعس عدم الفهم ! . . إنى أقول ذلك لصالحكم ، فإنكم إذا جئتم إلى المدينة واشتغلتم بالتجارة ، كان ذلك خيراً لكم ! . .

— نشكرك يا آنسة . . ولكن هذا لا يقال للفلاحين . . فكيف تعيش المدن بلا مزارعين ؟ ومن أين يأكل أهلها ؟

— لست أدرى ! . وهذا لايعنينى ! . . ولكننى

أوثر ألا آكل أبداً إذا فُرِضت عليّ خدمة الحيوان ! . .

فكاد الرجل يخرج عن طبعه ، لولا نظرة من زوجه . . فقد لاح أن دماغ هـذه الفتاة كان صغيراً كرأس الدبوس ، جامداً كذلك . . وقد تعلقت به خطأ فكرتان أو ثلاث . . كانت تصعّر لكل شيء خدها . كانت كأنها نزلت مؤقتاً لتعيش فى عالم بدائى ، على مدى ألف فرسخ من حضارة عصرها . . .

وتساءلت : « أين « الغاز » الذى عليه يطبخون ؟ ! » وأمسكت السكين والشوكة بطرف أصابعها ، وقلبت قطعة اللحم فى الصحن ثم أهملتها . .

فسألتها صاحبة الدار : هل تحضر لها بيضة ؟ فطلبت زبدة طازجة ! . . فأخذ القروى بيدها ، وأرادت زوجته أن تتبعه ، ولـكننى استبقيتها . . وعاد يقول بعد أن استودع الفتاة قارعة الطريق :

— ستذهب قدماً لا تلوى على شيء ، إلى حيث ألقت . . . وهذه هى طريقتهم فى تربيـة الأولاد منذ عشرين عاماً ! . . فلا بد من تغيير هذا المنهج ، وتعليم الناس فى فرنسا كيف يحترمون الفــلاح ، وإلا فإن

الفلاح يميت فرنسا جوعاً ! . .

● قال لى صاحبى الطبيب :

ــ أما وقد تمت الكارثة ، وعرفنا مصيرنا الحزين ، وليس فى وسعنا إلا أن نتبعه ، عند ما نستطيع أن نعيد تكوين فرنسا المسكينة ، ونقيمها من عثارها . . فأظن أننا مدينان بزيارة للسيدة « كارو » الفاتنة التى لا تقاوم . . ! فقد دفنت عزيزنا الشيخ « لومونييه » فى غيابنا ، فلنذهب لنعتذر ، ونفسر ، ونعزى . .

فوجدنا الأرملة الحسناء تحاول أن تقوم بدورها فى تلك الدار العريقة ، كممثلة مبتدئة . . فتجلس إلى منضدة الدبلوماسى العجوز ، إزاء مكتبته . . وما كان أرق سذاجتها وهى تقول :

ــ إن الألمان يقتربون . . إذن فقد وجب الموت أيها السادة ! . . ولست أدرى هل أحسن الموت ؟ ! . ما أشد جزعى من المنون . . ! !

فطمأنها الدكتور جهده ، بينا كنت تائهاً فى معانى حسنها . . وخرجنا ، فإذا به يسبقنى إلى إطراء جمالها . فقلت له : « إن جمالها لا يحول الآن دون جزعها وهلعها » . .

فانفجر ضاحكاً ، وقال : « هذه حماقة !.. فالجمال سيادة وسلطان ، والجمال دولة وصولجان ! . . »

وكان هذا الرجل على حق . . فإننا حين عدنا إلى دار « كارو » ، عندما علمنا أنه قد نزل عندها ، منذ بضعة أيام ، ثلاثة ضباط ألمـان من جيش الاحتلال . . وجدنا « كارو » أخرى . . امرأة تغيرت وتحوَّلت . . فهى لم تصبح بلا خوف ولا رعب . . وكفى . . ! ولـكنها زهت حسناً وأينعت ! . .

واستقبلتنا فى المكتبة ، وقالت بلهجة طبيعية للغاية :

ـ إن الألمـان ليسوا مطلقاً ، مازعمت من قبل ، أو ظننت . . . فهم رجال كـكل الرجال . وعندى منهم ثلاثة ، ثلاثة ضباط ، لم يأخذوا منى شيئاً ، وكل ماطلبوه أن ينزلوا عندى ، وهم يتحدثون معى عن طيبة خاطر . . بل إننا نتناول الطعام سوياً . . . وهم لا يريدوننى على أن أطبخ ، فكلفوا جنودهم « المراسلات » ، فقاموا عنى بكل شىء . . وهم رجال طوال القامة ، أقوياء البنية ، وهم رجال مهذبون . . بل إنى أجدهم على قدر كاف من الجمال ! . .

ثم توقفت عن الحديث . . . فأنعمت فيها النظر ،

فوجدتها فى هذه المرة كما لو كانت تضىء من الصميم . . كانت نفسها اليوم ، بعكس الأمس ، قد تحركت . . كانت فيها أمواج تجرى على جسمها . . . وكان تعليق الطبيب على مارآه :

— لقد استيقظت المرأة ! . . . فإن الزوج الشيخ لومونييه المسكين ، كان يمهد وعثاء الطريق حتى يجىء الظافر فى الحرب ، فيظفر بالحب ! . .

— وأين الاستقامة ؟ !

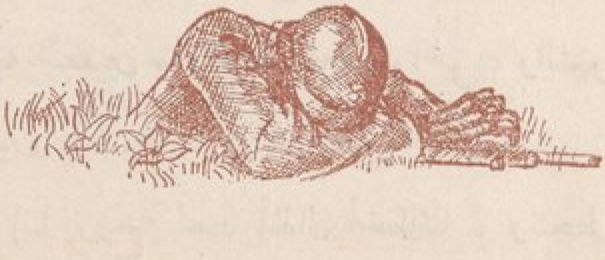
— الاستقامة ؟ ! ومن يذكرها ؟ ! . . لست أنا . . فهذه ليست كلمة طبيب ! . . وأهل الاستقامة والأمانة قلائل ، لايعيشون من مصائب الوطن . . وها أنت ذا قد رأيت لوطنك وجهين : وجه ذلك الفلاح النبيل الذى عشت عنده ، يعمل ، ويدأب ، وقد حارب فى الحرب الماضية ، وضحى بابنه فى الحرب الحاضرة . . ثم وجه النفعيين ، والوصوليين ، والحمق ، والشهوانيين ، والأنانيين . . .

إننا نرزح تحت أثقال أخطائنا ، ونتحطم تحت أقدام الطغاة منا ، قبل أقدام أعدائنا . . أو كما قال لنا

المـاريشال « بيتان » فى نداء الهدنة الذى وقعه والموت فى الحلق : « زنوا أغلاطكم ، فهى ثقيلة الموازين ! . . إنكم لم تريدوا أطفالا . . وقد نبذتم الأخلاق ، وكل المبادىء الروحية . . وقد بحثتم عن الشهوات ، فانظروا إلى أين قادتكم كل هذه الذنوب ! . » . .

وكادت تسدل هذه الذكريات الأليمة على وجهى قناعاً كثيفاً حالكا . . فلم أكد أتبين ما حولى من زنابق البرية المنبثقة فى كبرياء ، ولا الزهور التى انضمت على قلوبها الذهبية ، تخشى على براعمها من النسمات . . .

وكان ذلك مساء الهدنة الحزين . . فإذا بالشفق يتجلى آية فى الروعة والجلال . . حقاً . . لقد بقيت السماء للذين أضاعوا الأرض . . ! !



١٦

فى قبضة الاحتلال .. بين الملمس اللين ، واليد الحديدية .. عندما يدخل الغزاة المطابخ الشعبية .. تعليمات لشعب فرنسا .

« توماس كرنان » صاحب مجلة « ڤوج Vogue » الخاصة « بالمودات » ، الذائعة الصيت بين نساء العالم ، رأى فرنسا عند الاحتلال ، وبعد الاحتلال .. وآراؤه ذات وزن عظيم ، وهى ضرورية لكى نربط موضوعاته عن هذه الحرب ، بعيون وعقول وجنسيات مختلفة ، لنصل إلى قبس من الحقيقة ، المجهولة لنا بكاملها :

فى الساعة السادسة من مساء ١١ يونيه ١٩٤٠ غادرتُ باريس ، إلى بوردو ، محملا بكتب حسابات الشركات التى أعمل لها ، وما كان لديها من نقد . وكان القطار الأخير قد سافر ، وسدت طرق الجنوب بمليون لاجىء ، مسافرين على سيارات ، ومركبات ، وعربات نقل ، ودراجات ، وراجلين ، وكانت القافلة الشقيَّة التى يرثى لها ، تتحرك بسرعة خمسة أميال فى الساعة ، وكانت تتقدم ،

ثم تقف ، ثم تتقهقر ، ثم تتجمد كالدماء . .

وكان قبل ذلك اليوم قد طرقت سمعنا إذاعة عجيبة من الجنرال « هيرنج » بأن باريس سيُدافع عنها شارعاً فشارعاً . وفى ١٢ يونية بعدما تدخل السفير الأمريكى المستر « بوليت » أُعلن أن باريس مدينة مفتوحة . فتجمعت دبابات الألمان حول الشوارع التى تتجه إلى قلب المدينة ، وحاصرتها . وفى فجر ١٤ يونية اجتازت الوحدات النازية المصفحة أبواب المدينة ، ووطئت أرض باريس المقدسة ، وقعقعت بضجيج آلاتها فى الشوارع المقفرة ، بينا كان الذين بقوا فى باريس ، من سكانها ، ينظرون من وراء ثقوب النوافذ المغلقة . .

وكان السؤال الكظيم هو : « ما الذى سيفعله الفاتح الآن » ؟ . ولم يترك الألمان أهل باريس ينتظرون طويلا . فإن المدينة لم تلبث أن رأت - مندهشة - مطابخ متحركة لامعة للحساء (الشوربة) تجرى على عجلات . . وكانت (السلطانية) الهائلة التى على كل عربة تحمل أربعين جالوناً من (الشوربة) التى أعدها الألمان للإسعافات الغذائية ، فى شمس بعد الظهر ، وسرعان مابدأت عملها . .

فقد بدأ الألمان يستميلون قلب المدينة عن طريق معدتها . وهم وإن كانوا قلما يوفقون على طول المدى ، فإن هذه الإنسانية عملت عملا عظيما فى تخفيف وطأة تسليم المدينة . وكانت أكثر مؤونة باريس تصلها عن طريق الشمال ، ولم يكن قد وصلها منذ أيام ، بسبب سد الطرقات بالناس ونسف الخطوط الحديدية ، شيء من السمك ، ولا من اللحم ، أو الخضر ، أو اللبن ، أو الطيور .

وعلى ذلك فى الأحياء الفقيرة ، لم تلبث أن أحيطت مطابخ النازى المتحركة بصفوف طويلة من الخَلْق ، وقد أحسَّ الباريسى بأن شربه حساء الفاتح ، لا يضَير شرفه . !

ثم أدخلت الطمأنينة للحال ، بإعلانات غطت شوارع باريس وضواحيها . وهذه الإعلانات قد طبعت فى ألمانيا ، قبل ذلك بزمن طويل . وكانت إعلانات زاهية بثلاثة ألوان ، تظهر - كلما تقدمت الجيوش الألمانية - على حوائط الطرق فى بلجيكا ، والفلاندر ، وبيكاردى . . وهى الآن تظهر فى باريس ! . . وكانت هذه اللوحات تمثل جنديا ألمانيا جميلا ممسكا بيده غلاما فى أسمال بالية ، ويقدم باليد الأخرى قطعة من البسكويت إلى طفل

آخر متعلق بركبته ، وقد كتب تحت اللوحة : « أيها الأهالى المهجورون ، الجأوا إلى الجندى الألمانى » . .

وما من شك فى أن أهالى القرى قد هُجروا ، هجرهم الجيش ، والسلطات المدنية ، وحتى الأطباء والقسس قد تخلوا عنهم . . فكان من شر البلية ـ على أى حال ـ أن يُضطروا إلى الثقة بالجندى الألمانى والالتجاء إليه ، لأن سبب ماحدث من هجرهم وترك حبلهم على غاربهم ، ماعمله الطابور الخامس بخطط دقيقة متقنة ، موضوعة بإشراف الألمان .

بيد أن الجندى الألمانى قد اندفع للحال فى إظهار اللطف ، والأهالى الفرنسيون فى دهشة من عدم السلب أو النهب ، وقد تقوّت عزائمهم بشرب الحساء الساخن ، فتقبّلوا جيش الاحتلال بارتياح ، بدا أول الأمر كما لو كان ترحيبا ! . .

ثم ألصقت إعلانات أخرى ، أقل مودّة وأكثر رسمية ، على أبواب الكنائس وحوائط دور العمدية ومكاتب العوائد . . فكنت ترى النساء العجائز يثبّتن منظاراتهن المعدنية ليقرأن :

● « إن الأراضى الفرنسية المحتلة بالجيوش الألمانية ،

موضوعة تحت إدارة هيئة الحرب الألمانية .

« والقيادة الألمانية ستتخذ الاجراءات اللازمة ، لتكفل أمان الجيش ، وحفظ الهدوء والنظام .

« وقد تلقت الفِرَق أوامر ، بمعاملة الأهالى باللطف ، واحترام الممتلكات الخاصة ، طالما أن الأهالى محافظون على الهدوء .

« وتستطيع السلطات المحلية أن تستمر فى أعمالها ، طالما هى ملاحظة الولاء نحو الجيش الألمانى ، وأنا أرجو أن يكون الأهلون من الذكاء والفطنة بحيث يتجنبون كل عمل عدائى ، أو كل نوع من التخريب ، أو كل مقاومة إيجابية أو سلبية ضد الجيش الألمانى .

« وجميع أوامر السلطات الألمانية العسكرية يجب تنفيذها بكل دقة .

« وسيأسف الجيش الألمانى أشد الأسف ـ كنتيجة لأعمال العداء التى يرتكبها بعض الأفراد ـ لأن يجد نفسه مضطراً إلى اتخاذ إجراءات قاسية للانتقام من الأهالى ، فليبق كل فرد فى مكان عمله ، وليذهب رأساً من فوره إلى شغله . وبذلك يؤدى خدمة لوطنه ، ولقومه ،

ويعمل أيضاً لذات مصلحته . »

(إمضاء) قائد الجيش الالمانى

وكان هذا أيضاً معقولا ، بل كان فيه مجاملة .
وقد هز الرجل الفرنسى كتفيه . . فلينتظر ليرى . .
فإذا كان الألمان سيحكمون بيد حديدية ، فهى على
الأقل فى قفاز ! . . .

وإليك الإعلان الثانى لسكان فرنسا المحتلة ، الصادر
فى ٢٠ يونيه ١٩٤٠ :

« إن قائد الجيش الألمانى قد خولنى أن أحيطكم
علماً بالآتى :

١ — إن الجيش الألمانى يضمن للأهالى السلامة
الشخصية التامة ، وسلامة ممتلكاتهم . وأولئك الذين
يتمسكون بأهداب السلام والهدوء ، ليس لهم مايخشونه .

٢ — كل أعمال الشدة أو التخريب ، سيعاقب
مرتكبوها بأشد العقوبات . وأى خسارة أو إتلاف للمنتجات
والمحاصيل ؛ أو مواد الحرب من أى نوع ، أو أية خسارة
تلحق بالسلطات المحتلة ، ستعد من أعمال الخيانة والتخريب .
وأجهزة الغاز ، ومولدات الكهرباء ، ومصادر المياه .

والطرق الحديدية ، والخزانات ، والموانىء ، والأرصفة ، وأعمال الفن ، هى تحت حماية جيش الاحتلال خاصة .

٣ — بموجب مرسوم خاص ، قد صدر الأمر بتسليم الأسلحة النارية والمواد الحربية . وهذا المرسوم لاينطبق على الأسلحة التذكارية التى لافائدة منها . وأسلحة الصيد يجب تسليمها ، مع اسم صاحبها وصناعته وعنوان مسكنه ، للعمدة المسئول الذى سيكلف بعهدة السلاح .

٤ — الأشخاص المتهمون بالأعمال الآتية سيعدون مسئولين أمام المحكمة العسكرية :

ا — كل مساعدة أسديت إلى جنود غير ألمان كانوا فى المنطقة المحتلة .

ب — كل مساعدة للمدنيين لمحاولة الفرار إلى المناطق غير المحتلة .

ح — كل نقل للأنباء إلى أشخاص أو هيئات خارج المناطق المحتلة ، إضراراً بالجيش الألمانى والدولة الألمانية .

د — كل علاقة مع الأسرى .

ه — كل سَبٍّ للجيش الألمانى وقواده .

و — كل تجمهر فى الطريق ، أو توزيع منشورات ، أو تكوين جمعيات عامة ، أو مظاهرات لم يوافق عليها سلفاً القائد الألمانى ، وكذلك كل مظاهرة ضد الألمان أياً كانت .

ز — كل دعوة إلى الانقطاع عن العمل ، أو كل رفض اختيارى للعمل ، وكل إضراب أو تعصب

٥ — مصالح الحكومة ، والإدارات ، والبوليس ، والمدارس : يجب أن تستمر فى أعمالها . وبذلك تبقى فى خدمة مواطنيها أنفسهم . وسيكون الرؤساء والمديرون مسئولين أمام سلطات الاحتلال عن ولاء مؤسساتهم . والموظفون العموميون يستمرون فى قبض أجورهم ومرتباتهم .

٦ — كل المؤسسات والبيوتات التجارية ، والبنوك ، تستمر فى أعمالها لمصلحة الأهالى . وكل إغلاق بلا مبرر ، له عقوبته .

٧ — لمصلحة تموين الأهالى وتنظيمه ، يمنع كل خزن للبضاعة اليومية الاستعمال . والتخزين يعد من أعمال الخيانة . والنقل اللازم للمؤن من الأسواق لا يجرى تدخل فيه إلا بقدر ما تسمح الاحتياجات الحربية .

ومنتجو البضائع وحاجات الدرجة الأولى ، وكذلك التجار ، يجب عليهم الاستمرار فى أعمالهم ووضع منتجاتهم تحت تصرف الجمهور .

٨ — كل زيادة فى الأسعار أو الأجور وراء المستوى الموجود فى يوم الاحتلال ممنوعة إطلاقاً ، ماعدا الحالات الاستثنائية التى لها ما يبررها .

٩ — سعر الكمبيو محدد هكذا :

الفرنك الفرنسى يعادل ٠,٠٥ من الرايخ مارك .

ولا يسمح بأى سعر سواه ، وكل مخالفة لها عقابها . والنقود الألمانية ونقود البلدان المحتلة تقبل فى الدفع .

١٠ — الجنود الألمان سيدفعون نقداً ثمن مشترياتهم وطلباتهم وما يستولون عليه . وللمبالغ التى تزيد على ٥٠٠ مارك ، بدل الدفع نقداً ، تقدم شهادات تسليم ، وتتعهد إدارة الحربية الألمانية بتسديد المبلغ المطلوب . »

(إمضاء)

المحافظ الحربى الالمانى لفرنسا

وهكذا بدأت أنغام الاحتلال الألمانى فى فرنسا .

فلن تكون هناك قسوة صريحة علنية . سيجنبون الشعب

الفرنسى استهلاك قواه الجسدية والمعنوية . وعلى العكس من الحرب العالمية الأولى ، التى جعلت فرنسا عاليها سافلها ، أبقت هذه الحرب على موارد فرنسا ماعدا القليل منها . وقد توقفت الأعمال الهامة مؤقتاً ، إذ أُهْرع أربابها خارجين من مكاتبهم دون أن يهتموا حتى بإغلاق أبوابها ، وقد ألقيت أوراقها فانتثرت ، مهملة . . ولكن أدوات العمل ظلت لم تمس بسوء كثير أو قليل ، وكانت الآلات مستعدة لاستئناف المسير ، فما كان على الألمان إلا أن يعلقوا فى الشماعات قبعاتهم ، ويضعوا الوقود لتسير . .



١٧ فرنسا على ساعة برلين .. الاجراءات ضد اليهود .. نصوص المراسيم الرسمية بالحيلولة دونهم ، ودون الاشتغال بكافة الأعمال العامة ....

● أصدرت السلطات الألمانية فى باريس أخيراً ، فى يوليه ١٩٤٢ ، مرسوماً منعت فيه اليهود من ارتياد الأماكن العامة . وملخصه : أن اليهود سيمنعون ، فى المستقبل ، من دخول : المطاعم ، والمقاهى ، ودور التمثيل ، والسينما ، وصالات الرقص ، والمعارض ، وحمامات السباحة ، والمتاحف ، والمكاتب ، والأندية ، وحلبات السباق ، وحضور الحفلات الموسيقية ، وممارسة الرياضة ، والقيام برحلات فى العراء . . .

ويمنع المرسوم أيضاً اليهود من القيام بشراء حاجاتهم أو حاجات غيرهم من المحلات التجارية الكبرى ، أو ارتياد المحلات التجارية ، إلا بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة بعد الظهر .

وهذا ما يحملنا على استعراض الاجراءات التى

اتخذت ضد اليهود فى فرنسا المحتلة عموماً ، وها هو ذا البلاغ الخاص بالاجراءات ضد اليهود فى فرنسا المحتلة ، الصادر فى ٢٦ ابريل ١٩٤١ :

« بموجب السلطات المخولة لى من الفوهرر والقائد الأعلى للجيش الألمانى آمر بما هو آت :

أولا : أى شخص يعد يهودياً إذا كان منحدراً من ثلاثة جدود يهود قح . وكل شخص يعد يهودياً إذا كان له جدّان يهوديان صميمان وكان :

ا ــ فى ساعة صدور هذا البلاغ ينتسب إلى الطائفة اليهودية أو يلتحق بها .

ب ــ عند صدور هذا البلاغ يكون قد تزوج من اليهود ، أو يتزوج فيما بعد منهم . وفى حالة الشك فى أى شخص ينتسب أو انتسب إلى الدين اليهودى يعد يهودياً . . .

ثانياً : ١ ــ أى شخص لم يعد يهودياً حتى الآن ، ولكن تنطبق عليه البيانات الواردة فى البند الأول من هذا البلاغ ، يجب أن يقدم نفسه لإثبات صفته هذه قبل ٢٠ مايو ١٩٤١ .

٢ — بنـاء على الطلب ، تلغى الاجراءات ضد الأشخاص الذين اعتبروا حتى الآن من اليهود ولـكنهم لا تنطبق عليهم بيانات البند الأول من هذا البلاغ .

ثالثاً : ١ — بعد ٢٠ مايو ١٩٤١ ، محظور على اليهود أو الشركات اليهودية التى لم يعين لها مدير ، أن تمارس الأعمال الاقتصادية الآتية :

ا — البيع التجارى بالجملة والقطاعى .

ب — المطاعم والفنادق .

حـ — التأمين .

ى — الملاحة .

هـ — الشحن والاستيداع .

و — أعمال وكالات السفر والسياحة .

ز — أعمال الأدلاء والتراجمة .

ح — مقاولات النقل بكافة أشكالها ، بما فيها تأجير السيارات أو أى أنواع المركبات .

ط — أعمال البنوك والصيرفة .

ى — التسليفات .

ك — أعمال وكالات الأنباء والأخبار .

ل — أعمال وكالات الحماية والرقابة .

م — استغلال الاختراعات الأوتوماتيكية .

ن — أعمال وكالات النشر والإعلان .

س — أعمال وكالات تأجير الشقق ، والأراضى والرهونات .

ع — أعمال مكاتب التخديم .

ف — أعمال مكاتب الزواج .

ص — أعمال وسطاء الصفقات التجارية والسلفيات الصناعية .

٢ — لا يمكن فى أى عمل أن يستخدم اليهود كمستخدمين كبار ، أو مستخدمين لهم اتصال بالجمهور . وكل الذين من حقهم ، منفردين أو جماعات ، أن يوقعوا عن الشركة أو لهم نصيب فى الأرباح ، يعدون من كبار المستخدمين ، وكذلك كل من ترى السلطة الألمانية العسكرية أو السلطات الفرنسية المختصة أن له هذه الصفة .

٣ — بناء على طلب السلطة العسكرية الألمانية أو السلطة الفرنسية المختصة ، يجب أن يحل مستخدمون غير يهود محل المستخدمين اليهود المفصولين .

رابعاً : يجوز تعيين مديرين للإشراف على اشتراك أو حصص اليهود فى الشركات . وهؤلاء المديرون يخول لهم حق بيع ماللبهود فى تلك الشركات من أنصبة أو حصص . ولهم (للمديرين) الحقوق التى للملاك فى أملاكهم .

خامساً : إلى حين صدور أوامر أخرى ، ليس لمديرى الأعمال اليهودية أو الحصص أو الأنصبة فى الشركات أن يعطوا أصحابها اليهود إلا حدًّا أدنى من الدخل .

سادساً : لاتمنح تعويضات عما ينتج عن تطبيق هذه الأوامر ضد اليهود . . .

سابعاً : أى مخالفة للأوامر الحاضرة يعاقب مرتكبها بالسجن أو الغرامة ، حتى تصدر عقوبات أشد قسوة بأوامر أخرى . فضلا عن أنه يمكن الحكم بمصادرة الممتلكات »

(إمضاء) الحاكم العسكرى فى فرنسا

هذا . . وقد قرر الألمان أن يعملوا شيئين : أولهما : أن يجعلوا الاحتلال يدفع . والثانى : أن يسلكوا فرنسا فى سيادة ألمانيا باسم « النظام الجديد » بطريقة تجعل أقصى الغنم لألمانيا ، وفى الوقت نفسه تكفل عدم تمكين فرنسا ـ أبداً ـ من أن تتحدى القوة الألمانية مرة أخرى . .

وقد اختار رؤساء الاقتصاد الألمانى لنزولهم ، من بين جميع الأماكن « قصر البوربون » الذى كان داراً لمجلس النواب الفرنسى ، وهو رمز ، لا لباقة فيه ، لانتقال السلطة من ممثلى الشعب الفرنسى إلى الخبراء الألمان . وكان هؤلاء الخبراء الاقتصاديون جراحين ، يعلمون بالدقة كيف يبدأون عملياتهم الأقل ألماً ، والأقل دماء ، مما سوف يسيل من الشعب الفرنسى . . وقد بدأوا اجراءاتهم بسرعة وعناية ، والدم ينهمر الآن منذ أكثر من عام . . ونقل دم الثروة الفرنسية هو عمل لبق ، فألمانيا تتولى الصناعة الفرنسية . ولكنها تفعل ذلك بطريقة مشروعة ، فالأنصباء والحصص قد اشتريت ودفع ثمنها ، والرقابة المالية نقلت نقلا قانونياً .

فمن أين لهم ـ وحالتهم الاقتصادية تحت ضغط الحرب الذى لا يطاق ـ أن يجدوا المال لشراء هذه العمليات ؟ ! الجواب هو : « عند المغلوب » . . . فالألمان ـ فضلا عن المقدار الضخم من الذهب الذى استولوا عليه ـ قد نشروا شباكهم فى الأراضى الواطئة ، وفى فرنسا ، فحصلوا على المبلغ اللذيذ (٢,٠٠٠,٠٠٠) مليونى جنيه انجليزى يومياً ، وهو

ما تدفعه فرنسا لامتيازات احتلالها بالجيش الألمانى !!

ومنذ عودتى إلى أمريكا ، لا أكاد أصف لأصدقائى ما يجرى على يد الألمان من استغلال فرنسا ، حتى يسألونى : لماذا خفض الفرنسيون جناح الذل .. والحق أنهم لم يخفضوا للذل جناحاً ، وإنما لم يكن أمامهم بين بين .. كان عليهم أن يقبلوا الأمر الواقع أو يموتوا جوعاً . والرجل الفرنسى فى المنطقة المحتلة لايستطيع أن يغادر داره ، وقد أخذت منه حتى بندقية صيده .. فهو إذا احتاج لصيد الطير ليقتات به الآن ، نصب له شباكا . وكذلك أخذت منه أسلحته المعنوية ، فليست له صحافة ، وليس له برلمان ، ولا حق له فى الاجتماع . وهو يقف بمفرده ، لأن اتحاداته العمالية ، وجمعيات أرباب العمل ، قد ألغيت بأمر رسمى . وقد دُقَّ عنق خيرة جيوش العالم . وإذا كانت له تجارة ولا يريد المضى فيها ، أخذت منه وأعطيت للغريب . وإذا لم يعمل ، هدِّد بالاعتقال أو الإبعاد إلى أحد حقول ألمانيا ... ولكن الألمان قد حبكوا حبالاتهم من حوله ، واشتدت قبضة أيديهم على عنقه ، بحيث لم تعد تتاح له أية فرصة للتمرد أو النضال .

زد على هـذا أن الاحتلال قد قرر إعادة فتح جميع المصانع والمتاجر ، وأن تَستَخدِم بنفس الأجور السابقة ، كل الذين كانوا يعملون فيها قبل الاحتلال . وكذلك حددت الأسعار على مستوى يعادل مستواها الماضى . وهذا ماجعل الأعمال تمضى كالمعتاد ، وهو يفسر السعادة التى شعَر بها عدد كبير من الفرنسيين بعودتهم إلى باريس ، ونسيان كارثة الهزيمة . . .

فالحق أن الرجل الفرنسى لايستطيع أن يتصور دنيا لايكافأ فيها جهده وادخاره . وهو لا يستطيع أن يتصور تحرير النفس من مطمعها الوراثى بالعيش ، فيكون صاحب دخل إذا ما تقدمت به السن ، ويكون له معاشه وإيراد سنداته . . وقد قال لى فرنسى من أشد أعداء النازى : « إن أكـثرية مديرى مستعمراتنا ؛ هم فى صف « دى جول » . . ولـكنهم مضطرون إلى أن يطيعوا أوامر حكومة « ڤيشى » . فقد خدموا سنين طويلة تؤهلهم للمعاش عند اعتزال الخدمة . . فمن أين يتاح لهم أن يعيشوا مستقبلا ، إذا لم يتبعوا « ڤيشى » ! . . .

وكذلك تسير فرنسا على ساعة برلين . . . ! !

مراجع الكتاب

G. T. Garratt : *What has Happened to Europe.* New York 1940

Virginia Cowles : *Looking for Trouble* New York 1941

Douglas Reed : *A Prophet at Home* London 1941

André Marize : *FRANCE : ÉTÉ 1940* New York 1941

J. Maritain : *A Travers le Désastre* New York 1941

Knickerboker : *Is Tomorrow Hitler's* New York 1941

René Benjamin : *Printemps Tragique* Paris 1941

Thomas Kernan : *France on Berlin Time* New York 1942

Stephen Laird & Walter Graebner : *Hitler's Reich and Churchill's Britain* London 1942

فهرس

في أوائل سبتمبر يصدر

أحمد الصاوي محمد

حياة قلب

فؤاد معذَّب بين القاهرة وباريس ! .

[هذا الكتاب هو آية القلم الذى
وصفه أمير الشعراء : بأنه يخفق على
الورق ، كما يخفق القلب بين الضلوع]

شركة فن الطباعة
صندوق بوسته ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩